تصدير

يحيي نادى القصة فى أواخر شهر ديسمبر 1984 ذكرى مرور عشرين سنة على تاسيس نادى القصة بتونس . وذلك يعنى ـ من جهة أخرى ـ مرور ثمانية عشر عاما على صدور هذه المجلة (مجلة قصص) وقد بلغت أعدادها رقمالستة والستين رغم الفجوة التى حصلت فيها ما بين عددى 30 و 31 (جانفى 1974 ـ جانفى 1976) . وقد ترتب على ذلك عدم صدور سبعة أعداد منها وهم فى الحقيقة سبع مجموعات قصصية زيادة على الابحاث والدراسات . واذا كانت هذه الاشارة لا تعنى اعادة عتاب على تقصير خارج عن نطاق النادى بقدر ما تعنى تسجيل نقص فى الانتاج وقلة فى المردود . الا أن تلك الفجوة مثلت فى الجانب الآخر عملية الانقاذ التى أقدم عليها أعضاء النادى عندما شمروا عن السواعد ، وعولوا على الذات ، فاستانفوا اصدار مجلتهم مقتحمين ميدان النشر ، وهو أمر صعب فى مثل بلدنا السائر فى طريق النمو . ومن يدرى نتيجة ذلك التوقف الذى ظل عامين الا ربعا ولو استمر أكثر من ذلك ؟ ومن يدرى فلعلنادى القصة كان يتوقف ـ هو أيضا ـ عن السير بعد العقبة التى اعترضته !؟ ومن الواضح مدى النكسة أو الخسارة التى ستنال الفكر والثقافة بسبب ذلك ، اذ لا ينكر الدفع والحث اللذان سجلا لنادى القصة فى مجال الانتاج والابداع . ولو حصل التوقف لأصبح ذلك ـ فى تاريخ القصة التونسية على الاقل ـ محطة تشاؤم ، ومبعث يأس عند الكثير ممن يحتاج الى

الحث والدفع لا سيما لدى القرائح المتطلعة ، والمـواهب المتـواقة الى الخلـق والابـداع .

ومن كل ذلك نرى أن اقامة ذكرى عشرين سنة على ميلاد نادى القصة انما يعنى تخليدا لعزائم صدقت ، وتنويها بنوايـا حسنت .. عملت فى صمت ، وناضلت فى اتزان فادت رسالتها وقامت بواجبها . وسوف يسجل لها تاريخ الادب فى تونس والنهضة القصصية فيه شرف النضال ، ونبل العطاء . واذا من جلسوا تحت السور نالهم الاكبار والتخليد فما بالك بمن بنـوا السـور ، وعمروا المدينة ، وقدموا الزاد للسكان ، ووفروا الغذاء للاجيال .

تلك كلمة حق لا زيف ولا تمويه تلخيصا لما قيل . وتمهيد لما سيقـال . والله يبارك مسعى الجميع .

« قصـص »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القطار

وصل القطار المحطة الاولى ، دخل العربة شيخ مرتديا جبة بيضاء ، جلس الى النافذة ، حدق فى الافق البعيد ، ثم تحسس لحيته وقال :

ـ الحمد لله !

ردد رجل حذوه :

ـ الحمد لله ! قد يتوهم البعض اننا نتحرك داخل القطار !

أعجب الشيخ بكلامه ، فراح يرمى ببصره خارج العربة ، ثم قال بلهجة خطابية :

ـ نظرة الى خارج العربة كفيلة بابراز الحقيقة .

نظر الرجل مليا من النافذة وسرعان ما قال :

ـ ولكنى لا أرى شيئا !

قاطعه الشيخ بنظرة قاسية وصاح غاضبا :

ـ نتعلم أن الحقيقة موجودة خارج العربة يا غبى !.

خجل الرجل واعتذر للشيخ :

ـ كلام معقول . الحقيقة هى الحقيقة !

عند ذاك شعر الشيخ بالانتصار فاتكأ الى النافذة ، واستسلم للنوم .

★ ★ ★

توقف القطار فى المحطة الثانية ، فوثب من الباب شاب قوى العضلات يلبس بدلة عمل رزقاء . مشى حتى توسط العربة ، ثم صاح :

ـ حقا اننا نتحرك ! نتحرك !

استيقظ الشيخ فزعا ، ساخطا :

ـ أيها الملحد ! أيها العنيد !

فصاح به الشاب :

ـ كل شيء حولنا يدل على دوام الحركة ! ٠

زعق الشيخ :

ـ ماذا جاء بك الى عربتنا ؟!

رد الشاب ساخرا :

ـ أرأيت كم انك متحجر ٠

احمر وجه الشيخ من فرط الغضب :

ـ لا يمكن ان يكون معنا مارق !

ضحك الشاب ، ثم قال ببرودة :

ـ يا لجهل الشيوخ ، ويا لغباوتهم !

وظلا يتراشقان الكلام حتى يئسا ، فمضى كلاهما بعيدا عن الآخر وبقيا صامتين :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تنهد الرجل وقال :

ـ هذا الشاب جدير بالاحترام ٠٠

سمعه الشيخ فقال مزمجرا :

ـ ماذا قلت ؟

فرد الرجل بصوت مرتجف :

ـ لا شيء ٠٠ قلت اننا لا نتحرك !

ولكن الشيخ ذا اللحية الكثة نظر اليه شزرا ، فساد الصمت من جديد ٠

★ ★ ★

توقف القطار فى المحطة الثالثة ، فدخل شاب آخر يلبس جبة بيضاء ويضع على رأسه قبعة افرنجية ٠

ـ انا عربى ٠٠ يشهد التاريخ بمجد اجدادى ٠

رد عليه الشيخ :

ـ هذا صحيح ·· ولكن المعجزة قد انتهت !

صاح الشاب :

ـ سنعيد بناء حضارتنا السالفة !

سأل الشيخ :

ـ هل اننا نتحرك داخل القطار يا بنى ؟!

رد الشاب باللامبالاة :

ـ المسألة ثانوية · أما المهم فهى اللغة التى نتخاطب بها والتاريخ الـذى
و ·· قاطعه ذو البدلة الزرقاء :

ـ ليست المسألة ثانوية كما تتوهم اننا نتحرك ·

رد الشاب بلامبالاة :

ـ انا عربى ·· ولا بد ان تكون مثلى والا ··

ذعر الشاب الآخر وقال :

ـ انت تهددنى

فرد عليه فى انفعال :

ـ الخوف كل الخوف على العالم من قنابل افكارك ·

رفع الشيخ صوته قائلا :

ـ استغفر الله !

ثم ذهب الى ناحية من العربة · جلس على الارض وراح يصلى حتى ثقل رأس الشاب صاحب البدلة الزرقاء ولكنهما بقيا يتبادلان النظر فى حقد ·

★ ★ ★

وفى تلك اللحظة ، اندفع الى العربة كهل بشع الوجه يرافقه رجال اقوياء يحملون هراوات فى أيديهم وصاح :

ـ أنا مراقب القطار ، والهراوة فوق الجميع صاح الشيخ :

ـ الجهاد فى سبيل الله !

وصاح الشابان فى غيظ :

ـ الهراوة لا تجدى ٠

ـ سندافع عن هويتنا ٠

استشاط المراقب غضبا ، فأشار الى رجاله بالهجوم ٠

٠٠ فانقضوا جميعا على خصومهم يضربونهم ضربا قاسيا الى أن فقدوا توازنهم فسقطوا أرضا ٠٠

وقد نال منهم الالم ٠

وقال المراقب ٠

ـ أرأيتم كيف أقطع احلامكم ؟!

فقال الشيخ :

ـ لقد خالفتم الله عز وجل ٠

صاح الشاب ذو البدلة الزرقاء :

ـ أسكت ايها الشيخ الغريب !

تنهد الشاب الآخر ٠

ـ واحسرتاه على حضارتنا !

فقال المراقب بازدراء :

ـ أحبذ خلافاتكم ، ولكننى سأقيدكم جميعا على كل حال !

★ ★ ★

وتعالت أصوات ساخطة غاضبة فى العربات كلها ٠ ووقف الركاب يضجون ويصخبون فى وقت واحد ٠ وفى أثناء ذلك تقلص وجه المراقب من الانزعاج، وتساءل :

ـ لم تصرخون ؟

أجاب أحد الركاب :

ـ لقد رفعت فى ثمن التذاكر !

وأضاف آخر :

ـ اننا كرهنا السفر فى هذا القطار !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدق المراقب فى الوجوه العابسة وقال :

ـ أصلنا ننتمى الى قطار واحد ، أنا المستقبل ٠

٠٠ ورجالى يمثلون الماضى ، ولا أحد يقدر على عرقلة رحلتنا !

وأضاف مخادعا :

ـ اننى لا أهددكم ، ولكن انتمائى الى هذا القطار يفرض على ان اتخذ موقفا حازما وصارما من المهرجين !

قال أحد الركاب ملتمسا :

ـ أطلق سراح اخواننا !

ولكن المراقب التزم بالصمت وأمر عيونه أن ينتقلوا فى انحاء العربات لترصد الحركات ٠

★ ★ ★

وواصل القطار رحلته بطيئة ٠٠ بطيئة ، فأخذ الركاب يتهامسون فى حذر، وقال احدهم :

ـ لم يتبعوننا كالظل ؟

٠٠٠٠٠ (صمت) ٠

وقال آخر :

ـ الا تشمون فى القطار رائحة غريبة ؟

وأكد ثالث :

ـ فى القطار رائحة كريهة خانقة ٠

فتنهد شاب وقال :

ـ الليل يشتد ظلامه ٠

وعندما أراد الجلوس احس بضربة قاسية تصيب رأسه ، فترنح من الالم وقال :

ـ اى ذنب ارتكبت ؟

فزمجر المراقب :

ـ انك تتدخل فى شؤوننا !

فأضاف الشاب :

ـ ولكن القطار ..

وقاطعه بحدة :

ـ ها انت تعود الى مروقك !

وأمر المراقب رجاله بتقييده وضربه حتى نزفت الدماء ، ثم وضعوه فى ناحية مظلمة .

★ ★ ★

توقف القطار فى المحطة الرابعة ، فصعد مسافرون كثيرون ، صاحوا :

ـ الى أين يمضى بنا القطار ؟

قفز الشيخ قائلا :

ـ لا حول لنا ولا قوة فى هذه الرحلة !

قال احد الركاب :

ـ لا تصدقوا هذا الشيخ .. لا تصدقوه .. انه غريب !

اكتظت العربات بالمسافرين ، فهتف الشيخ :

ـ أنا مسؤول عن مصيركم !

ابتسم الشاب ساخرا :

ـ أنت مسؤول عن نفسك !

رد الشيخ قائلا :

ـ هذه هى مأساتنا ، نتجاهل دوما مصيرنا ! ..

أضاف الشاب :

ـ دعنا من افكارك ، فالقطار مثقل بالهموم .

ورد الشيخ :

ـ ولكن رحلتنا ستنتهى بالموت !

عبس الشاب وقال :

ـ مت بمفردك ، فنحن لا ننهزم !

قال الشيخ يائسا :

ـ ليكن الجحيم مآلك !

ضحك الشاب وقال :

ـ ألا يكفى هذا الجحيم الذى نعيشه فى القطار ؟

رد الشيخ يائسا :

ـ أنانى لا تفكر الا بلحظات دنيوية زائلة ٠

صاح الشاب :

ـ انا لا احتاج الى التفكير بالموت ، أنا اموت فى كل لحظة من شدة الهموم!

وبدأ الشاب صاحب القبعة الافرنجية يتحرك ببطء ، وسرعان ما قال :

ـ هذه مشاكل ثانوية ٠٠ الاجدر ان نبحث عن هويتنا ٠

★ ★ ★

وتحرك القطار ، فخرج من بين الجموع شاب قوى العضلات وأخذ يقرأ فى صحيفة :

ـ اننا محتاجون الى التحرر من التمزق والانقسام ٠٠ هـذه هى حقيقـة وجودنا ٠٠ نتحرك ٠٠ نتحرك ومن الاغتراب أن نقذف بذواتنا خارج القطار فنعبدها ونهجر واقعنا ٠ حقا ، اننا جديرون باثبات جوهرنا !

أراد ان يواصل كلامه ، ولكن الشيخ قاطعه :

ـ الى اين يمضى بنا القطار ؟ ومتى تنتهى رحلته ؟

فابتسم الشاب وقال :

ـ رحلة القطار ليست لها بداية ولا نهاية ٠٠ ولكن هدفنا ان نصمد ونغير ما بداخله فنصنع الانسان ٠

غضب الشيخ وقال :

ـ ما فائدة ان يتعب الانسان دون ان يدرك سر وجوده فى هذا القطار ؟ وما فائدة ان نصنع انفسنا ونحن ثابتون لا نتحرك ؟!

واندفع الى النافذة يفتحها ، ولكنه لم ير شيئا ٠٠ فاندهش وانقض على الشاب يقبض على رقبته ، فاعترت العربات موجة من الصيـاح والضجيـج والفوضى ٠

٠٠٠ وظل القطار مع ذلك يسابق الريح ، ولم يتوقف فى المحطة المنتظرة ٠

عـلى عـزيـزى

ابراهيم بنسلطان

إنـــه الجـــدب

... الجو خانق ، ليس فى يومه من جديد ، وغده هل سيكون كيومه ؟ كلما رجع الى قريته أحس باختناق ، شعر بفراغ مهول وانتابه قلق مقيت وحيرة كبيرة : أسرته فقيرة ، اخوته صغار ، يتامى ، معذبون ، حياتهم مأساة، يشعر بما يعانونه لكنه لا يستطيع ان يبدل عالم أسرته الحـزين ! اخوته مهزلة أمام أعين الناس ، يخجل عندما يسأله أحدهم : «أأنت أخو الغراب!؟» «الغراب» اسم أحد اخوته الصغار ، أخوه الذى انقطع عن الدراسة لان جو المدرسة يزعجه ، تكاليفها تقلقه ، علاقته بمعلمه كان يشوبها توتر دائـم : شعر أشعث أغبر ، هندام مشوش ، أدوات ناقصة ، قلة اهتمام بالدروس ، غيابات متكررة ، نتائج ضعيفة ، كان يشعر باحتقار من بعض تلاميذ فصله فترك المدرسة ولم يتجاوز السنة الاولى ابتدائى ، تشرد فى أنهج القـريـة وأزقتها بحثا عن حرية الصبا وفى مزابلها بحثا عن قوارير وأحذية مستعملة وبقايا أسلاك نحاسية لبيعها ،، تشرد حتى لفحت شمس الصيف الحـارقة وجهه فاسودت بشرته فسماه رفاق التشرد : «الغـراب» ، أخوه الغراب لا يحب الضيق ، يعود الى المنزل وقت شاء للاكل أو للنوم !.. ـ كبر الغراب، اختلت مداركه العقلية ، قالت الام : انها شمس الصيف الحارقة أيام التشرد، قال بعضهم : مس من الجنون ! قال الطبيب فى المستوصف بعد أن ألقى عليه عليه نظرة سريعة ودون ان يلمسه : انها صدمة ! أحد مساعديه قال : انها سوء التغذية ! ـ أخوه الاكبر عاطل عن العمل ، طموحه أن يهاجر الى ليبيا للعمل ، يعيد على مسامع أفراد الاسرة صباحا مساء : الهجرة ستحل جميع مشاكلى ومشاكلكم ! كل يوم عندما يعود من السوق تسأل الام :

ـ هل وجدت عملا ؟ هل قابلت المعتمد ؟ هل وهل وهل ؟؟؟

«.. لقد قابلته ،، قال : ارجع بعد غد ،، الحاجب قال غير موجود ، قالوا له مع مجموعة من العاطلين فى مكتب التشغيل : انتظروا ، سنوفر لكم شغلا ، سـ ... سـ ... سـ ....»

بعض اخوته الصغار مازالوا يدرسون ... احتارت أمه فى تسيير أمور هذه الاسرة التى اختلفت ميول أفرادها وتعددت مشاكلهم : تشرد ، بطالة ، فقر ، مرض ...

عندما يعود الى قريته يسأم هذا الجو الذى نشأ فيه ، لا يجد ما يحلو له ، لا يجد متنفسا للافكار التى شحن بها ذهنه ، يحلم باليوم الذى يستطيع فيه أن يسعد أسرته لكن الغد بعيد والطريق طويلة وصعبة المسلك ، هل يستطيع مواصلة دراسته رغم فقره ؟ آفاق مستقبله تبدو غامضة ، الطريق صعبة وطويلة ... يحب أمه كثيرا ويشفق عليها لما تعانيه من آلام وأتعاب منذ وفاة أبيهم ، يساعدها أحيانا فى توجيه اخوته الصغار ،،، هذا الجو دفعه الى التدخين ، يدخن ـ كلما توفر له طبعا ثمن سيجارة أو بعض سجائر ـ لينسى هذا الجو ، لينسى همومه ! ليسبح قليلا فى عالم الخيال ... ليس له فى منزله الا غرفة بسيطة يتنازل له عنها اخوته خلال العطل ويلتحقون بالغرفة الثانية ليوفروا له الهدوء ليحضر دروسه . فى هذه الغرفة يجد راحة وبعدا عن هذا الجو الخانق ، يدخلها ليلا للنوم ونهارا لتحضير احساسه ، يرتمى على فراشه البسيط المكون من حشية قش وغطاء صوفى ، يتمدد على الحشية وينسج بخياله عالما من عوالم اللذة ليتناسى واقعه المر . يحلم لو كان غنيا مثل ابن فلان : ثروة ، سيارة فخمة ، قصر كقصور ألف ليلة وليلة فى احدى ضواحى العاصمة المترفة ، تمتع بمباهج المال ، أثاث فاخر ، زرابى مبثوثة ، آه بنت فلان الشقراء ! آه لو يتزوجها ! يعيش معها فى عالم وردى ، خمر ، موسيقى ، يفعل فى الشقراء ما يريد ، يدفن فيها همومه ، ينسى أتعابه ، مشاكله ، تعاسته ، مستقبله الغامض ، أسرته المعذبة ، «الغراب» ، أخوه البطال ، ينسى كل شىء ... يفتح عينيه ، يحاول اغماضهما ليعود الى عالمه السحرى ، يفيق ليجد نفسه فوق الحشية ، الحشية كما ألفها خشنة صلبه تحته ، يجد نفسه وحيدا فى غرفته ، مشاكله ، أتعابه ، مصيره ، همومه ، تعاسته ، كلها تحدق فيه ، تحيط به ، ترعبه ، تفزعه ، تؤنبه فيغمض عينيه ليتناسى ما جرى ... ليس فى يومه من جديد ، وغده أيكون كيومه ؟ يشعل لفافة تبغ ويمضى يدخنها وهو يفكر فى وضعه ، فى أسرته ، فى مصيره ،، يشعر برغبة فى مطالعة كتاب ، يتناوله ، يلتهم صفحاته ركضا نحو نهايته ،،، يخرج فى صباح اليوم الموالى ، الجو مكفهر ، اخوته بعضهم فى

المنزل والآخرون التحقوا بصحبهم ، صياح ، بكاء ، نباح كلب ، سوق القرية ليس فيها من جديد لمن هم فى مثل وضعه ،،، يعود الى غرفته ليتمدد من جديد فوق الحشية ، لينعم بالوحدة ، ليعيش مع خياله الخصب ، ليعيش مع الشقراء ولو للحظات قصار ، فراشه بساط سحرى ينقله من عالم الوحدة الى عالم اللذة ، الى عالم وردى ، فراشه أعز ما يملك فى المنزل ، لطالما اهتزت فوقه فرائصه ، ولطالما لهث فوقه فأصبح ساحة حرب ، ساحة خمر وحب ، ساحة ألم وندم ... لكن ، لكن لماذا أحب الفراش ؟ هل أعيش وحدى هذه الوضعية ؟ لا ، لا ، أمثالى كثيرون ، أصدقائى : محمود ، صالح ، أحمد، سعيد عاشوا ، يعيشون هذا ! لماذا ؟ انه واقعنا القاحل ! انه الجدب ! ظروفنا القاسية ! لماذا كنت أحلم بالشقراء ؟ الشقراء بعيدة عنى ، أنا فوق حشية قش فى غرفة بسيطة تنخرها الرطوبة والديدان وهى فى قصر فخم فوق فراش ريش ! والسيارة والقصر والزرابى والاثاث الفاخر ؟ انها بعيدة عنى ! وغدنا أيكون كيومنا ؟ الى متى سنبقى هكذا ؟! الى متى ستبقى ظروفنا هكذا ؟!

ابراهيم بنسلطان

ـ الرديف ـ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد الحليوى : ناقدا وأديبا

تأليف : محمد الهادى المطوى

اصدار : الدار العربية للكتاب

التابعي الأخضر

حديث عن التمر

الان يرحم حمّ باهي . قاللكم ردوا بالكم منو أغصفوه قبل ما يستحنش ها وينه امبلحقْ اتْشَعْبِنْ كلبهْ بن ألف كلب .

كان المتحدث « باسي » الذي جلس على بقايا زنبيل من السعف . وحوله في دائرة يتوسطها كانون عليه (براد) كانوا يستمعون إليه وكأنهم أطفال يتلقون درسا مشوقا .

يسكت « باسي » بتعمد . تتبع الحركات من كل ظاهر جسمه . يغمض عينا ويفتح الأخرى . يمطط شفتيه . يميل أنفه . تتباعد أصابع يديه وتقترب . وأعين السامعين تلاحق حركاته . فكأنما كان يمسك الخيوط لتحريكها . يرتفع صوته ثم يصير إلى همس عندما يتعامل مع قصبة « السبسي » ويرص عود الكبريت على فتحة الغليون بتشفّ فكأنما وجد المتحدث عنه هناك فهو ينتقم منه بالكي . يجذب من القصبة نفَساً عميقا . ثمّ ينفثه في الهواء ، يغمض عينيه . يضع يده على صدره يغالب سعالا طارئا . يفتحهما محملقا رافعا رأسه إلى أخشاب السقف كأنما يستشيرها ويتابع :

امْنِينَهْ الآنْ يرحمه يتكلم أنتم تضحكوا عنّه وتقولوا : حتى لِقِيرغْ لَقْبِيحْ النَّاتِنْ عَيْوَلِيّ عَبْدْ . هَاوِينَهْ وَلاّلْكُمْ حَنَشْ فِي قُلّه . اربط في بعصوصه خيط .

لم يكن المتحدث عنه غير « التمير » سابقا . وسي بن الحاج الآن الذي صار بحكم سوق التّمر . ومن أكبر تجاره . يرفع الأثمان متى

شاء . ويخفضها إذا أراد . يدفع لمن يشاء الثمن عاجلا ويترك الشراء ممن يكره . وكان يقول لمن يطلب منه تعليلا : لمن لا يعجبه تصرفي هذا كامل الحرية في أن يبيع غلته لغيري فلست أنا تاجر التمور الوحيد في هذا البلد . وما طرقت باب أحد أطلب منه بيعا .

كانت تلك كلماته أيضا عندما يقترب حدود المطالبة من الحاج . يتغير المنظر ويلدغ المرء من الجحر مرّات ومرات .

تجار التمور من بعده ضعاف يستمدون من سطوته رزقهم . ومن خالط التمرّد رأسه رمى به إلى الإفلاس .

تربى « التمير » هذا يتيما . شَبّ ككل فقراء القرية « ڤَيّالاً » يعمل العام كله من أجل عدل تمر يتقاضاه في فصل الخريف موسم جني التمور . يحمل عدله على ظهره ويرتاح مرات حتى يدخل به على أمه التي تكون في انتظاره في مثل هذا اليوم وفي أول الزقاق لتريحه من بعض العناء . وهي فرحة تكاد تزغرد . أليس هذا أمل العام ومحصول سنة من الانتظار . تقول له مشجعة : كُلْ عام وقسمة يا وليدي . السّني عَدِيلَهْ وَدَايرْ نَقْلَهْ . اللهْ وصحة البدن . ثم ترمي بأول تمرة تتذوقها وتنبسط أساريرها فرحة فكأنها لم تذق في حياتها الطويلة تمرا .

ووضع باسي كأس الشاي بين شفتيه . وأصدر شهيقا مزعجا . ثمّ أردف : كَانَكُمْ اعْبَادْ مَبَلْحِقْ تَوَهْ تِرْفُسُوا تمركم برجليكم وتتركوه للعُرُوبهْ الرّاس براسين ولا يَتْفَتى فيكم التمير .

نبيعله تمري السمح . دقله كي اللّويزْ بالكلمهْ . ونقعد ماشي عليه جاي أنا وأولادي . اعطيني نفقة العيد . هاني عنشري بلغه وبَخْنُوڤ للمرا . قلّي وَشْ عَنْسَاوي . عَنْطِيرْ . لزيتْ روحي نهار ومشيتله قتله : عنشري كَبوس شوف هَا الكُرْنافَهْ فوق راسي تحشّمْ . لوكان ميشي

اللّحْفه ساترتني مَنْقْدّش نُمرق للسوق . ضحك عني وقاللي : وش عَتْدَنّي بيه ها الكبُّوس هَاوِينهِي اللحفه امْدَفياتك . ولا حتى أنت زارك الطوق والفلس .

واستقام المجالس صالح وقال بحماس يعاتبه :

ومشيتله بْجُودك . بالحرام لو كان نْجِيف بالشَرْ ونيبس بالبرد لا نعقبْ حتى على زقاقه .

نسيت منين كان يطلّع في القمم. وينفَر في النَّخْل وَشِي هو حتى تِمشِيله بجودكم .. وقال « اللي » مؤيدا .

هَاوْ هُوَ نسى منين كانت لحفته كي السداده وبُلُوزْتَه منصدّه والرّجل حافيه .

وعبثت الريح بفتيل القنديل فاطفأته . وقال صوت في الظلام :

طرْ . نوقف قدام بابه ونْطبطبْ عنه أنا . بالحرام من وقت اللي بطلت أمه بيعان العرعار لا طبيتْ هاك الثنيه . وعاهدي بالباب مْتِكي نصّه ضلاع ونصه خشب مسوس .

وقال باسي : هاو نسى الدّايوث منين كان في ڤريشه يبيع في الفول وأمه تلقط في اللقمْ من حوش لحوش .

وقال اللي : أنا بَرّدْتْ فيه ڤلبي الكْ العام منين كان مْقَيّدْ علينا نلقاه نهارْ في ثنية الغابة ينخز في البهيم انتاعنا بالمنجل حتى قريب يغرسهوله في غاربه . شديتْلَه ڤنط لايث وعطيته حتى كْسح .

وقال باسي : وانت يا سي ابراهيم واش بيك ساكت لا ڤلت لا طابت لا تحرقت . ماو ڤول معانا كلمه .

— واش عنڤول . تْبَعْكِيكْ زايد . الراجل عِشمْ ما عادش يتفارعْ والحكام ولت تجيه لحوشه . واحنا ڤاعدين في السڤايف انكعرّروا هاو كان هاوْكان .

وقاطعه باسي مغتاظا: توه نڤطع حَوَلِيَّ . أنا تعرفني ما نحبش العوج . بالحرام لو كان موشو عيب توه نمشي ننادي عليه بالعار انسرّدهْ ونْمرّثَهْ ولاّ واشْ تحب يا باهي . أنا يدڤني النّبي لو كان موش يڤولوا بلڤاسم كوفخ ها البلاد لا قعدت فيها . نبيع ها السعفتينْ حتى نْلُوشي ونمشي حتى لْخنفوس انهجْ للمينة والرزق عند الله مضمون ولا ڤبالةْ ها الزنوس البارده .

وفي حركة انفعالية امتدت يده للسبسي بينما نهض ابراهيم ونفض جبته قائلا :

الواحد يمشي عروحه خير . الظلام يزكي الكلام يا باسي .

وقال اللي بعد ذلك : حتى أنت يا باسي ڤداش خضْرَاطْ . تي هذاك يُقبض فلوسه والغلّه مازالت بلح تجي تقول ڤدامه ها الكلام . ماوْ حتى هو كيفهْ . شرى الغويبه بالربى العشره عشرين .

قال باسي وهو ينفث الدخان :

ريّطْ عليه ،ستين سنا عليهم الاثنين تڤُول بيَّهْ والا بِيهْ. والتفت إلى ناحية الباب حينما أحس بخطى :

مِنْهُ آذاكا . وجاء صوت ابنه : أنا يابّا :

— واش بيك تتسليتْ . وين كنت لتوّه . اذهب تْكبْ

— كنت في حوش الزوايل . خشّشت المعيز والبهيم على خاطر النّو عتصبْ .

قال باسي مذعورا : قوم يا علي شوفلي كلام ها الكبُّول .

وعاد اللي وهو يتعثر في جبته . تكّم السْحاب . سحابه سوده م الغرب

وعلق باسي بمرارة : ما يجي مالغرب ما يقرّح القلب .

وران صمت ثقيل . وسمعت تنهدات . وتسللوا الواحد تلو الآخر وتفرقوا كلّ في رأسه فكره ولخطاه مقصد . ولم يبتعد اخر المغادرين عن السّقيفة حتى أحس بقطرات الماء تتساقط على أنفه فأسرع الخطى ، وما إن وصل إلى البرطال الذي يستر دار « التمير » حتى تهاطل المطر فأصبح غزيرا فاضطرّ للاحتماء هناك . ولكن كان هناك من سبقه فهو قابع لذات الغرض . وتريث تساقط الأمطار وهدأ أخيرا وكاد ينصرف من كان متواريا لولا أن فتح باب دار « التمير » وأطلّ منه نور ثم قذف الباب رجلا بيده مصباح فكلّ آمل أن يهتدي به في ليل المطر والظلام .

كان حامل المصباح يحمي رأسه وظهره بكيس من الخيش خوف البلل . يمشي متمهلا حذرا حتى لا تزل قدمه فوق لزاجة الأوحال والطين . يتمتم بكلمات لعلها دعاء له . أو شتيمة لغيره حتى صار إلى حيث وجد شخصا منتصبا أمامه . وتقدم منه آخر وآخر حتى التفوا حول النور فكونوا كوكبة وسمع صوت عرفه الجميع : باسي . واش جيت تْدنّى هنا واش جابك للتمير .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال صوت غيره : لا حول ولا قوة إلا بالله .

ورفع باسي المصباح فاذا كل الوجوه هنا . رجال السقيفة تحولوا . وحدث باسي نفسه : من أعلمهم بمقصدي . لا يمكن أنه أوحي إليهم . وهذا سرّ لا يعلمه إلا الله . وأخيرا رفع المصباح وقربه من فيه ونفخ فيه فانطفأ وهو يقول : بالحرام ويدفني النبي كان نخلي الناس الكل في الظلام تِتْعافس .

وفي تلك اللحظة سُمع زلزال فقد هوى أحد الحيطان . ومن يدري فقد تتداعى حيطان أخرى .

الجســـر والـقـطـــار

نزل من الحافلة ، تفحص المكان بدقة ، هذا هو المكان المقصود ، هذا هو الجسر الذى تمر من تحته القطارات ، وهذه محطة بيع البنزين ، أخرج مشطا وسرح شعره ، سوى ربطة عنقه واخفى كمى قميصه الممـزقين ، تمنى أن تكون له بدلة جديدة وحذاء جديد ولكنه لم يقرأ لمثل هذا اليوم حسابا ، لقد تقدم به العمر وهربت به السنوات بعيدا ولم يعد يحفل بالمظاهر وليس له زوجة أو صديقة يتجمل من أجلها ، وابتعد عنه أصدقـاؤه بعد ان تحسنت أحوالهم وتزوجوا وملكوا العقارات والسيارات وبقى موزعا على شوارع المدينة وانهجها وحدائقها العمومية ، متناثرا على المقاهى والحانات والمطاعم الفاخرة ، الشعبية ، الحقيرة ، يتناول الوانا عديدة من الاطعمة على طاولة كبيرة نظيفة يغطيها شرشف أبيض نظيف يلمع تحت المصابيح المتعددة الساطعة ، زينت بباقات الورود ، أو يكتفى بالدخول الى مطعم حقير فيقف امام طاولة متسخة عليها بعض قطع من لحم حمار او حصان او بغل ، يأمر صاحب المحل بوزن بعض القطع ، يضعها فى صحن حديدى ويرميها امام معاونه فيلتقيها فى فرن انتصب فى زاوية من زوايا الدكان فتتأجج النار وتتصاعد ألسنتها ويغمـر الدكان دخان كثيف كريه الرائحة ، تمر لحظات فيتغير لون قطـع اللحـم وتنكمش فيخرجها المعاون ويضعها فى الصحن ويقدمها له ، يأخذ الصحن شاكرا ويتجه نحو رف فيلتهمها بسرعة ويقدم لصاحب المحل بعض المليمات ويخرج ليرتمى فى أول مقهى يعترضه فيشرب شيئا ليزيل طعم التراب والملح العالق بفمه .

يذهب احيانا الى احدى قاعات السينما ، يلفه الظـلام فيشعـر بالراحـة والطمأنينة فيضحك مع الضاحكين ويبكى مع الباكين ويصيح مع الصائحين ويصفق مع المصفقين ، عندما تجلس بجانبه احدى الفتيات يعمد الى مـس جزء من جسمها بحركة تعتقد انها عفوية فاذا انكمشت على نفسها وأبعـدت ساقها او يدها او ثديها او كتفها ابتعد عنها واذا لم تمانع والتصقت به يطلق

ليده العنان تجوس فى شعرها أو صدرها او فخذيها فيشعر ان الحياة تدب فى جسمه من جديد ويحلم بزوجة تقاسمه أفراحه وأحزانه وهمومه وبمنزل يملؤه ضجيج الاطفال وصراخهم وبكاؤهم • ولا تلبث هذه الاحلام ان تتلاشى وهذه الشعلة ان تنطفىء عند اضاءة الانوار فيخرج ويواصل تسكعه فى الشوارع وعندما تغلق المدينة أبوابها وتنطوى على نفسها وتنقطع المارة يجمع أشلاءه ويرجع منكفئا الى منزله فيجده صامتا ، موحشا ، باردا •

تقدم نحو الجسر بخطى وئيدة ، وصل اليه ، اتكأ على حافة حاجزه الحديدى القصير ، نظر أمامه فرأى السكك تمتد خطوطا متوازية الى اللانهاية ، سكة واحدة ابت الانصياع ومتابعة القطيع فمالت الى اليسار لتغيب بين الجدران السوداء العالية والاشجار الباسقة التى تعلو اغصانها وأوراقها طبقة من السواد لم يفلح الهواء ولم تقدر الامطار على ازالتها •

اخرج جريدة وشرع فى قراءة عناوينها البارزة لقتل الوقت مفكرا متسائلا عن الاسباب التى جعلته يقدم على هذا العمل ، وعن تسلل هذه الفكرة الى عقله واستحواذها عليه ، كان يقرأ جريدة فرنسية قديمة قد تركها صاحبها على مقعد من مقاعد احدى الحدائق العامة ، انتهى عن قراءتها فطواها ووضعها بجانبه ، شعر بالقلق ففتحها ثانية ، وشرع فى قراءة الاعلانات ، مرت امامه سيارات للبيع وعمارات ، ومنازل ، وشقق للكراء ومغازات وساعات وكلاب ضائعة يبحث عنها اصحابها وهم مستعدون لتقديم هدايا ثمينة وأموال كثيرة لمن يجدها أو يدل اصحابها على الامكنة الموجودة فيها ، هو ضائع منذ سنوات فى هذه المدينة ولم يبحث عنه أحد ، ولم يسأل عنه أحد ، لفت انتباهه اعلان صغير : فتاة فى العقد الثالث من عمرها ، من عائلة طيبة ، وضعيتها المادية ممتازة ، تبحث عن زوج فى مثل سنها أو فى العقد الرابع من عمره ، صاحب وظيفة محترمة ومن عائلة طيبة • أعاد قراءة الاعلان مرة ثانية وثالثة ورابعة وضع رأسه بين كفيه وتذكر طويلا • امتدت يده الى جيبه وأخرج ورقة وقلما وكتب رسالة ذكر فيها اسمه وسنه ووضعيته المالية والعائلية وعمله وطوى الورقة وأغلق الظرف ورماه فى صندوق البريد •

ارتجت الارض من تحت قدميه فشعر بالرهبة والخوف ، ما الذى يمنع الانسان من القاء نفسه ؟ قفزة واحدة ويسقط امام القطار ، يفاجأ السائق بالجسم ينزل أمامه فيحاول كبح جماح القطار ، تخطف العجلات الجسم وتهرب

به بعيدا ، تمزقه اشلاء ، تبعثرها بجانب السكة • يقف القطار أخيرا ، ينزل المسافرون لمعرفة ما حدث لا يتحمل بعضهم رؤية المنظر الفظيع فيغمى عليهم ، يتعالى الصراخ وتكثر الجلبة ، فيجرى بعضهم الى قوارير المـاء والعطـورات ويريقونها على فاقدى الوعى ويحملونهم داخل العربات ، يشتم السائق هذه الساعة وهذا اليوم ويصب جام غضبه على هذا المعتوه الذى لم يجد غير هذا القطار ليرمى نفسه تحت عجلاته رغم ان القطارات تمر كامل اليوم من هـذا المكان • تأتى بعد دقائق طويلة سيارة الاسعاف ، يفتح بابها ، ينزل الممرضون يلمون القطع المتناثرة ، يلفونها بملاءة بيضاء ، يحملونها وينصرفون ، يبقى المسافرون يتساءلون عن الاسباب التى جعلته يضع حدا لحياته بهذه الطريقة، وتمر الايام والليالى ويبقى الحادث مجرد ذكرى تصارع النسيان ، المنزل الحقير الذى يسكنه والشارع الضيق الذى يمتلىء نهارا بصياح بائعى بقايا اللحوم والخضر والثمار والنفايات وليلا بمواء القطط ونباح الكلاب وصياح السكارى مجرد ذكرى كذلك ، تراجع الى الوراء وأشاح بوجهه عن القطار فلمح طيف فتاة على الجانب الآخر من الجسر ، لا بد انها هى ، لقد بعثت له رسالة تعلمه فيها أنها قد اختارته لفارق السن رغم الرسائل العديدة التى وصلتها من اشخاص طلبوا يدها وحددت هذا المكان وهذه الساعة للالتقاء ليتعرفا على بعضهما ، لابد انها هى ، انها هى بدون شك ! ولكن كيف سيفاتحها فى الامر ؟ مـاذا سيقول لها ؟ انه لا يعرفها ، ولم يرها فى شارع أو فى باب أو فى شرفة أو فى مغازة ، لم يسمع صوتها ، ولا يعرف عنها شيئا ، أخرج صورتها وانتقل الى الجهة الاخرى ، وقف قريبا منها ، لا يفصلهما غير بضع خطوات ، نظر الى الصورة ، تأمل الفتاة الواقفة بجانبه ، الفرق واضح بين الحقيقة والصورة ، ربما تكون الصورة قديمة ؟ الشعر المتهدل على الاكتاف يمكن ان يقص ، وزنها يمكن ان يزيد ويتضاعف بمرور الايام والسنوات ، ولكن طولها وملامح وجهها وبشرتها لا يمكن ان تتغير ، همت بالاقتراب منه ، ولكنها احجمت تراجع الى الوراء قليلا ، نظر اليها مرة اخرى ، وعاد من حيث أتى ، القى نظرة اخيرة على الجسر وعلى السكك الحديدية فرأى القطار يسير بعيدا ... بعيدا ... مخلفا وراءه سحابة من الدخان الاسود الكثيف •

ساسى حمام

أحمد ممو

القصة القصيرة والرواية فى تونس
إحصاء وتصنيف

1 ـ علامات على الطريق :

اذا امكن الاتفاق على ان القصة القصيرة فى شكلها المكتوب تتركز حول حدث معين خلال فترة زمنية مضغوطة وتقتصر على عدد محدود من الشخصيات فانها من هذا المنطلق تمثل من خلال الانتاج الادبى فى تونس الوجه الابرز من غيره باعتبارها الاكثر انتشارا والاقل كلفة عند النشر ٠

واذا كانت بدايات القصة القصيرة قد تأرجحت بين المترجم وما هو تطور طبيعى للمقالة الادبية والمقامة ، واذا كان مفهوم القصة القصيرة والرواية فى بداية هذا القرن فية من الغموض ما يجعل تصنيف بعض ما ورد تحت اسم «رواية» فى مجال القصة القصيرة أقرب منه الى مفهوم التصنيف النوعى فان فى ذلك الغموض ما يؤكد ان مفهوم القصة القصيرة باعتباره دخيلا قد جاء لكى يكمل الجوانب الادبية التى لم تتوصل المقامة الادبية او الخبر او الحديث الى التعبير عنه ٠

وموقف الاحصاء والتقييم الذى نقفه اليوم هو اساسا ضبط للمجهود الجماعى فى هذا الميدان وتوضيح للمفاهيم تاركين جانبا التغليب بالظن ٠ وفى ذلك ما قد يمكن الدارسين من وضع صنفى القصة القصيرة والرواية موضعهما الامثل عند مقارنتهما بما يماثلهما من انتاج البلدان العربية الاخرى باعتبار انتمائنا اللغوى والثقافى ٠

وقد يكون فى هذا الاحصاء ـ وعلى وجه الخصوص فى ميدان القصة القصيرة ـ عدم الدقة فى الضبط كما اعتاد الناس عند كل احصاء وذلك نظرا لتنوع نماذج هذا الصنف الادبى ومجالات نشره واعادة نشره ٠ ومع تأكدنا ان ذلك الحصر الذى يراد به معنى الاحصاء يتطلب تظافر جهود جماعية عديدة

وتخصص عدة افراد لعمليات الجرد ثم التصنيف بعد ذلك الا ان ما نقدمه هنا مجرد علامات على الطريق لمن يرغب في تنزيل هذا الصنف الادبى مكانته من الانتاج الثقافى ٠

اما الرواية باعتبارها تتميز بتطور الشخصيات من خلال تطور الحدث وتنميته وتفريعه ومن خلال تعدد المواقف وتتابعها زمنيا وتنوعها باختلاف الشخصيات فهى تضع عند الاحصاء مشاكل أقل تعقيدا من القصة القصيرة وذلك نظرا لصدورها في كتب مستقلة عكس القصة القصيرة التى عرفت مجال نشرها الاوسع منجمة في الصحافة وهى كذلك تضع مشاكل أقل عند الاحصاء نظرا لتأخر صدورها وتكثفه مع بداية الستينات ٠ ورغم ذلك فان مشاكل التصنيف تبقى قائمة بالنسبة للرواية كما هى بالنسبة للقصة القصيرة لما في بداية كتابة الرواية من خلط في المفاهيم النوعية ولما في طبيعة الرواية من تفرد الانماط وتداخل النماذج عند استخراج خصائصها الاساسية ٠

2 ـ الاحصاء :

2 ـ 1 ـ احصاء القصة القصيرة في تونس :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعتمد في عملية الاحصاء هذه على ان ما امكن تجميعه من ارقام صادرة في شكل دراسات حول القصة القصيرة أو في شكل بيبلوغرافيا وكذلك على بعض المسارد التى تمت لحصر القصة القصيرة في كل من مجلتى «الفكر» و «قصص» هذا بالاضافة الى احصاء مباشر لما نشر في اهم الدوريات الادبية : في ما يلى ما امكن تجميعه من ارقام حول القصة القصيرة في تونس :

ـ مجلة الفكر : (56 ـ 81) : 676 قصة قصيرة ٠
ـ مجلة قصص : (66 ـ 83) : 635 قصة قصيرة ٠
ـ جريدة الصدى (74 ـ 76) : 121 قصة قصيرة ٠
ـ مجلة التجديد (فيفرى 61 ـ جانفى 62) : 12 قصة قصيرة ٠
ـ مجلة ثقافة (69 ـ 72) : 8 قصص قصيرة ٠
ـ مجلة للشباب (56 ـ 70) : 60 قصة قصيرة ٠

ـ مجلة المباحث (38 عددين / البشروش • ثم من 44 الى 47 البشروش / المسعدى) 19 قصة •

ـ مجلة مرآة الساحل (66 • ـ 74) 56 قصة قصيرة •

فجملة ما نشر فى هذه الدوريات الادبية يعادل 1587 قصة قصيرة تضاف اليها المجموعات القصصية الصادرة الى حد نهاية 83 وهى 68 مجموعة وباعتبار ان معدل قصص كل مجموعة من هذه المجموعات هو 16 قصة قصيرة فيكون بها حوالى 1088 قصة قصيرة • وبذلك يكون مجموع ما تم احصاؤه 2675 قصة قصيرة •

يمكن ان نشير ايضا الى بعض الصحف والمجلات التى لم يتم ضبط ما نشر بها من قصة قصيرة وهى :

ـ صحيفة الاسبوع (47 ـ 54)

ـ صحيفة الصباح (صفحة الشباب) •

ـ مجلة الاذاعة والتلفزة •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الصحف الاخرى من نوع «المسيرة» «والرأى» فان ما نشر بها ضئيل الى الحد الذى لا يؤثر فيه على العدد الجملى التقريبى الذى نرى انه لا يتجاوز باى حال من الاحوال 3000 قصة قصيرة وذلك باعتبار ان ما نشر فى الدوريات الادبية التى لم يتم الرجوع اليها قليل او قد اعيد نشر نصيب منه (كما هو الحال بالنسبة لمجلة الاذاعة والتلفزة) فى شكل مجموعات قصصية •

انطلاقا من هذه الارقام يتضح ان كلا من مجلتى «الفكر» و «قصص» تستقطبان ما يقارب 45 فى المائة من جملة ما نشر فى ميدان القصة القصيرة التونسية لذلك يمكن اعتبارها المرجع الاساسى لدراستها باعتبارهما ايضا تستقطبان اكبر عدد ممكن من كتاب القصة القصيرة وتعكسان المراحل المختلفة لتطور هذا الانتاج لدى نفس الكاتب او على مستوى الاجيال نظرا للمرحلة الزمنية التى تغطيها كل منهما •

2 ـ 2 احصاء الرواية :

اذا كا ناول ما اصطلح على تسميته «رواية» قد تم نشره بتونس سنة 1906 فان الرواية الثانية (الساحرة التونسية) لم تنشر الا سنة 1910 ·· وكـان يجب ان ننتظر بعد ذلك مرحلة ما بعد الاستقلال لكى نرى الرواية تطبع فى شكل كتاب مستقل يمثل هذا الصنف الادبى فى خصائصه الاساسية دون اى اخلال · وبذلك نجد من جملة الخمس والخمسين رواية المطبوعة اليـوم 20 فى المئة فقط قد تم نشرها قبل استقلال البلاد · وما المنشورة قبل هذا التاريخ الا كتابات تشكو الكثير من النقص والاختلال الفنى لكى يطلق عليها اسم رواية دون تحرج · فالرواية التونسية نظرا لملابسات كتابتها ونشرهـا جاءت متأخرة عن القصة القصيرة بما يزيد على العقدين وما نماذجها الاولية التى ادرجت تحت هذا الاسم الا كتابة تتراوح بين الحكاية والخرافة والخبر الادبى ·

لعل الوقوف عند بداية ظهور الرواية فى تونس يستوجب الاشارة الى ان الترجمة والاقتباس كان لهما الدور الاساسى فى ادخال مفهوم الصنف الروائى الى التقاليد الادبية ·

فان كانت حركة التاليف الروائى ضعيفة خلال العقود الثلاثة الاولى مـن هذا القرن فذلك لا يعنى انتفاء هذا الصنف الادبى من الدورة الثقافية وذلك ما يفسر لماذا كانت ترجمة الرواية وكذلك اقتباسها من البواعث الاساسية على كتابتها · فهما زيادة على سدهما الفراغ الابداعى فى هذا الميدان قد وضعـا الرواية التونسية امام مشكل اساسى وهو مشكل التصنيف اذ كان يجب منذ البداية وضع مقابل للمصطلحات الغربية التى تعرف القصة القصيرة والرواية·

من خلال الخمس والخمسين رواية التى تم احصاؤها وعند التوقف عنـد دور النشر الصادرة عنها نجد ان الدار التونسية للنشر والشركة التونسية التوزيع تستقطبان حوالى 50 فى المائة من نشر الاثار الروائية ثم تاتى بعد ذلك الدار العربية للكتاب ودار صفاء للنشر والتوزيع والصحافة بنشرهما حوالى 25 فى المائة · ام االربع الباقى فتتقاسمه دور نشر اخرى لم تجعل من نشر الانتاج الروائى سياسة فى انتاجها · وفى هذا التوزيع ما يعكس ما يتسم به نشر الانتاج الادبى من مجازفة ·

اما على مستوى الاسماء الادبية التى كتبت الرواية فهى لم تعرف التكثف والتنوع الا فى النصف الثانى من السبعينات • وقليلة هى الاسماء التى لها كثر من ثلاثة عناوين روائية فى السوق • لتفسير ضآلة الانتاج الروائى فى البلاد الكثير من الاسباب منها ما هو مرتبط بشخص الكاتب وملابسات وضعه من عدم تفرغ وعدم تمرس وقصر نفس أدبى ومنها ما هو نابع من ملابسات وضع النشر •

واذا كنا فى حاجة الى حوصلة وضع الرواية الادبية فى تونس فيمكن ان نقول عنها انها حديثة لم تجد مجالها الادبى الا بعد الستينـات وهى اليـوم تتجذر نوعا وكما مع كثير من الاحتشام فى مرورها الى جوانب الدورة الثقافية الاخرى من سنيرة ومسرحة ركحية او سمعية بصرية •

3 ـ التصنيف

3 ـ 1 ـ مفهوم التصنيف :

التصنيف الذى نعنيه هو التصنيف النوعى الذى يكون تنازليا تفرعيا يمر من **الشعبة** الى **الفصيلة** ثم **الرتبة والعائلة** لكى ينتهى الى **النوع** (الـذى هـو القصة فى هذه الحالة) ثم الصنف (قصة قصيرة او رواية) وتتم عملية التصنيف بعد ذلك فى مستوى القصة القصيرة او الرواية • والتصنيف الذى نعنيـه هو ذاك الذى لا يعتمد الا على الخصائص الاساسية للنوع الادبى وفى نطاق النوع يكون التصنيف انطلاقا من المميزات الخصوصية للصنف لذلك كـان التصنيف غير الحصر الكمى للنماذج الادبية وغير المتابعة التـاريخية لها • اما استعمال الاستعراض التاريخى كمرحلية لتقسيم نماذج الصنف الواحد فهو ترتيب لها يستعمل لابراز الصفة التطورية للصنف •

3 ـ 2 ـ تصنيف القصة القصيرة :

3 ـ 2 ـ 1 ـ عرض مرحلى تاريخى :

فترة الثلاثينات التى عرفت على الدوعاجى (توفى سنة 54) ومحمد العريبى (توفى سنة 45) هى التى ركزت مفهوم القصة القصيرة فى تونس كمظهر من

الصحافة الادبية التى تتجه الى الجمهور العريض وذلك من خلال كتابات محمد البشروش (عبد الخالق) • والتيجانى بن سالم وعلى الدوعاجى ومحمد العريبى وليس من باب الصدفة ان تكون تلك الفترة هى التى طرحت مع هذه الاسماء ومن خلال مجلة «العالم الادبى» **نظرية القصة** (1932) • ودخل اولئك القصاصون فى نقاش مستفيض حول مفهوم البطل فى القصة ودور الشخوص القصصية ومشكل العقدة ووظيفة الكتابة القصصية بين التعبير عن تناقضات الحياة الاجتماعية ووقوفها موقف الشاهد من العصر الذى يزامنه الكاتب • كما مثلت الناحية الشكلية للكتابة القصصية الجانب الآخر من ذلك النقاش الذى كان يرتكز أساسا حول البحث عن الجذور التأصيلية للكتابة الادبية وذلك من خلال ايجاد صلات تقارب بين ما يكتب وبين الاخبار العربية القديمة والسير الشعبية • وما هذا الموقف الا احساس بما فى صنف القصة القصيرة من جوانب مستجلبة من الغرب تنحدر اساسا من La nouvelle و Le roman وسعى لتأصيل اصناف ادبية قديمة تجاهلتها النهضة الادبية الحديثة فى خضم تعلقها بالمقال الادبى والمقامة •

كان ذلك الطرح للنظرية الادبية فى مجال القصة قد جاء قبل اوانه نظرا لقلة النماذج التى يمكن ان تكون مجالا للاستدلال والتطبيق لذلك بقى النقاش نظريا ولعل ذلك من اسباب امتداده الى نهاية الستينات اذ عند كل مرحلة يحس فيها كتاب القصة القصيرة بالحاجة الى تعميق مفهوم الكتابة القصصية يعاد طرح النظرية الادبية فى مجال القصة دون ان يتم تجاوز ثنائية الشكل والمضمون • وما تأخر وضع التصنيف النوعى للقصة الا لان الجهود التى بذلت قد بقيت قطاعية لا تهتم بالقصة القصيرة على حدة او بالرواية منفردة • وكم نحن اليوم فى حاجة الى تقييم ما يحويه نوع القصة من قصة قصيرة ورواية وحكاية وخبر ادبى ومقامة ورحلة وسيرة ذاتية•••الخ•••ككل متكامل يخضع لمنطق التطور والنمو ويعكس الخلفية الثقافية الاجتماعية لزادنا التراثى ولموقفنا من العصر • ولعل فى ذلك مجالا لكى تخرج النظرية الادبية فى مجال القصة عندنا من هامشية القصة القصيرة والاقصوصة والقصة الطويلة والرواية والقصة المتأصلة والقصة المستجلبة •

فان كانت فترة الثلاثينات قد ركزت مفهوم القصة القصيرة فى تونس وأكسبته ذلك الحضور الصحفى كرافد ادبى يغذى جمهور القراء بديلا عن

المقال الادبى والمقامة (بيرم التونسى على وجه الخصوص) فان حضور محمود المسعدى فى الاربعينات ببعض احاديثه (السندباد والطهارة ، حديث الكلب، حديث المسافر ... الخ) قد جاء دعما لاولئك الذين يبحثون عن جذور تراثية للقصة القصيرة فى هذه البلاد تأصيلا لها فى نطاق القصة العربية المعاصرة الا ان محمود المسعدى يبقى باتجاهه الذهنى تفردا متميزا عند محاولة ربط الحلقات التاريخية لكتاب القصة القصيرة فى تونس لذلك يكون شبه ضرورى على المحور التاريخى ربط جيل الثلاثينات بجيل الخمسينات باعتباره همزة الوصل فى نقطة الانقطاع والتحول الاجتماعى والسياسى الذى عرفته البلاد وبذلك كانت اسماء مثل الطيب التريكى والطاهر قيقة والاخوة باكير وفرج الشاذلى هى مقدمة لاسماء اخرى مثل البشير خريف والعروسى المطوى ومصطفى الفارسى . ولعل اهم ما يميز كتابات جيل الخمسينات هو ذلك المنحى الاجتماعى والسردى الوصفى باعتبار القصة القصيرة شريحة اجتماعية وضعت لتحليل ، وأحيانا لنقد ، وضع اجتماعى استرعى اهتمام الكاتب ولقى صدى فى نفسه .

مع اواسط الستينات تتعدد الاسماء وتتنوع المشارب تدعيما للمنحى الاجتماعى النقدى ويتبلور تدريجيا مفهوم التجريب فى الكتابة القصصية كصدى لما كان يدور من مناقشات حول النظرية القصصية ويأتى ذلك موازيا لصدور المجموعات القصصية ولبروز المجلات والملاحق الادبية المختصة بكثافة فاقت بها كل الفترات الماضية . وتتركز النوادى الادبية التى يتحول البعض منها من منتديات للتهميش الادبى اللفظى الى مخابر للكتابة القصصية ومناقشة مفاهيمها .

فاذا كان جيل الستينات هو الذى وضع هياكل الانتاج الادبى (نوادى مختصة ، مجلات ودوريات ادبية ، مجموعات قصصية ... الخ ..) فقد يكون جيل السبعينات هو الذى اكسب القصة القصيرة فى تونس ذلك التميز الذى عرفه فى نطاق القصة العربية المعاصرة .

مهما كان فى هذا العرض التاريخى لمراحل نمو القصة القصيرة فى تونس من تعميم وضوابط مجحفة واعتباطية احيانا الا انه يمكن فى النهاية من استنتاج ما يلى :

1 ـ المرحلية فى كتابة القصة القصيرة فى تونس مرحلية تطورية سمحت بالمرور من المقال الادبى والمقامة والحكاية الشعبية الى الحدث الاجتماعى او النفسى او الذهنى مقولبا حسب اسلوب سردى او وصفى او استبطانى او استرجاعى وفى حدود زمن قصصى يخضع للتقطيع والتوازى وللاستعادة والتداخل وينمو هذا الحدث من خلال شخوص تستقطب المواقف وتركز حولها المعنى . لذلك لا يمكن اعتبار المرحلية التاريخية بالضرورة حتمية تطورية لدى جيل ما أو لدى كاتب بعينه وانما هى اطار اجتماعى / زمنى اصطبغ باحداث ومؤثرات انعكس البعض منها فى الانتاج القصصى لتلك المرحلة .

2 ـ اعتمدت القصة القصيرة فى تونس كوسائل تبليغية الكتابة الصحافية فى البداية ثم النشر الاذاعى ولكن بشكل محتشم وانتهت الى النشر فى دوريات ادبية مختصة ثم فى مجموعات قصصية تمثل كل مجموعة منها مرحلة من انتاج كاتبها . وكالرواية فحظ القصة القصيرة فى ميدان التحويل الثقافى ضعيف ويحدث عرضا لذلك يمكن اعتبار القصة القصيرة منقطعة عن الدورة الثقافية لا تعرف من وسائل التبليغ الا النشر الكتابى وذلك ما يترك مجال التحويل الثقافى واسعا امامها فى المستقبل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3 ـ 2 ـ 2 ـ **التقسيم النوعى للقصة القصيرة :**

فى هذا التقسيم يراعى بشكل اساسى الاهتمامات الاولية للقصة القصيرة

1 ـ **الاهتمام الوعظى التوجيهى :** وقد عرفته القصة القصيرة فى بداية تمفصلها مع المقال الادبى وعند تميزها عن المقامة ذات الاتجاه النقدى (محمود بيرم التونسى) ثم عاد هذا الاتجاه فى نماذج قليلة من «قصة الحيوان» (الطاهر قيقة ومصطفى الفارسى) .

2 ـ **الاهتمام الاجتماعى :** وتتنوع فيه النزعات من الاجتماعية النقدية الى الاجتماعية التسجيلية الى الاجتماعية التحليلية (جيل السبعينات) الى الاجتماعية التاريخية (المطوى ، عبد الرحمان عمار ، ناجية ثامر) وهذا الاهتمام الاجتماعى هو الذى جعل صفة الواقعية غالبة فى نطاق القصة القصيرة التونسية . ولعل فى التقسيم الزمنى لاجيال كتاب القصة القصيرة فى تونس ما يصبح

اكثر وضوحا عند ربطه بمفهوم الاهتمام الاجتماعى للكتابة القصصية اذ نرى القصة القصيرة تمر من الاجتماعية التسجيلية الى الاجتماعية التاريخية الى الاجتماعية التحليلية ثم النقدية ٠

3 ـ **الاهتمام النفسى** : وفيه تركيز على الذات الفردية وطرح لموقف الفرد من المجموعة ومن الاحداث التى تعيشها المجموعة أو تؤثر فيها ٠ وهو اهتمام استقطب كتابات جيل السبعينات على وجه الخصوص ٠

4 ـ **الاهتمام الشكلى** : وعرف باسم «النزعة التجريبية» وهو صدى للنقاش الذى بدأ فى الثلاثينات واحتد من جديد فى نهاية الستينات حول «النظرية الادبية فى مجال القصة وتطبيق لتلك النظرية الادبية ٠ وهو اهتمام نوعى أكثر مما هو اجتماعى يأتى لكى يذكر بتلك الثلاثية التى تجمع بين الاثر الادبى وكاتبه وقارئه ٠

3 ـ 3 ـ **تصنيف الرواية** :

يمكن فى هذا الصدد الرجوع الى ما نشر فى مجلة قصص وما نورده هنا هو اختصار لذلك :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1 ـ **الرواية الايقاظية والرواية التعليمية** : اقترنت الرواية الايقاظية بمعطيات ظرفية تاريخية عرفها العالم العربى عندما طغت فيه موجة الفكر الاصلاحى ٠ اما الرواية التعليمية فهى تلك التى تحمل افكار الكاتب من خلال مواقف خطابية واستطرادات يمكن اعتبارها غير ضرورية لتنامى الحدث الروائى ٠ ولعل افضل مثال لذلك فى الرواية التونسية «الهيفاء وسراج الليل» لمحمد صالح السويسى ٠

2 ـ **الرواية التاريخية والتاريخية الغرامية** ٠ هذا النمط من الرواية تعليمى فى اهدفه تشويقى فى عرضه للاحداث من خلال شخصيات لها صدى فى التاريخ او هى مسندة الى احداث تاريخية ٠ فالاهتمام بالحدث التاريخى اساسى فى مثل هذه الرواية ٠ وكل جوانب التشويق تكمن فى حبك العقدة واضافة مواقف ثانوية تفسر الحدث التاريخى وتبرزه والامثلة على ذلك فى الرواية التونسية تتراوح بين الساحرة التونسية (الصادق الرزقى) والشجرة

(محيى الدين بن خليفة) وبرق الليل (البشير خريف) والجسد والعصا (محمد الهادى بن صالح) ٠

3 ـ **الرواية النضالية** : تنبنى على مفهوم الصراع ويكون موضوع الصراع فيها هو الارض بمعنى الوطن وزمن الصراع فترة التحرير الوطنى ٠ وتمثل الرواية النضالية خمس الانتاج الروائى وهى نسبة لا تفوقها الا نسبة الرواية الاجتماعية ٠ ويمكن تقسيم الرواية النضالية الى : رواية نضالية تسجيلية كحليمة والتوت المر (محمد العروسى المطوى) وارجوان ونوافذ الزمن (محمد المختار بن جنات) وحب وثورة وعندما ينهال المطر (عبد الرحمان عمار) ويوم من ايام زمرا (محمد صالح الجابرى) ورواية نضالية تحريضية : وهى تلك التى تكتب وتوضع فى متناول القارىء خلال الفترة الصراعية وهدفها بعث الحماس والتحريض على النضال وافضل ما يمثل هذه الرواية فى الادب العربى الرواية الفلسطينية كرجال فى الشمس (63) وعائد من حيفا (69) لغسان كنفانى ٠

4 ـ **الرواية الاجتماعية** : تكون الرواية اجتماعية فى طبقية شخصياتها او فى تقسيمها الفضائى تسعى لابراز الصراع الاجتماعى او لنقد اختلال التوازن الطبقى او الجهوى (المدينة / الريف) ترصد التحولات الاجتماعية والاحداث المسيطرة على مصير المجموعة والمحدثة للتغيير الاجتماعى ٠ وهى تتراوح بين الاجتماعية التسجيلية والاجتماعية النقدية مرورا بالاجتماعية التحليلية ٠ والامثلة على ذلك كثيرة عند البشير خريف (افلاس ، الدقلة فى عراجينها) ومصطفى الفارسى (المنعرج) ورشاد الحمزاوى (بودودة مات) وعبد القادر بن الشيخ (ونصيبى من الافق) ومحمد صالح الجابرى (البحر ينشر الواحه) ٠٠٠ الخ ٠٠

5 ـ **رواية الرحلة** : تمتاز رواية الرحلة باهتمامها التسجيلى على مستوى المجموعة والافراد (الكاتب) فهى تعطى للتحول الفضائى الاهمية الاساسية ٠ ورغم ان نماذجها قليلة فى الرواية التونسية (على الدوعاجى : جولة بين حانات البحر المتوسط ومحمود بيرم التونسى : مذكرات المنفى) الا انها من اكثر اصناف الرواية انفتاحا على التراث لما كان للرحلة من دور فى الثقافة العربية الاسلامية ٠

6 ـ **الروايــة الذهنية** : قوامها الفكرة والكلمة ، شخصياتها محض تصور ترمز للخير والشر والعمل والخيبة والسعى واكتشاف لذة البحث والانجاز · زمنها خيالى ، المكان فيها مجرد افتراض لا ضرورة لوجوده الا فى نطاق ضرورة الحركة · الكل فى الرواية الذهنية كلمة ورمز وفكرة · وينفرد محمود المسعدى فى نطاق الرواية التونسية بمثل هذا الانتاج كما فى حدث ابو هريرة قال والسد ومولد النسيان ·

فالرواية فى تونس نظرا لتأخرها الزمنى الى مرحلة ما بعد الاستقلال كان اهتمامها الاساسى فى البداية تسجليا لمرحل النضال الوطنى ثم انفتحت بعد ذلك على الجوانب الاجتماعية وهى اليوم فى نماذجها الاخيــرة قد تجــاوزت الاجتماعية التسجيلية لكى تصل الاجتماعية النقدية وبذلك تكون الروايــة كالقصة القصيرة فى تونس قد عرفت فى بداياتها نفس الاهتمامات التعليمية باشكال اقرب ما تكون للمقال الادبى · واذا كانت القصة القصيرة قد استنفذت جانبا من انتاجها للبحث الشكلى فان الرواية ما زالت لم تعط الناحية الشكلية كل الاهتمام الذى هى فى حاجة اليه ·

ARCHIVE

وفى النهاية تكون القصة كنوع ادبى ممثلة فى صنفيها القصــة القصيــرة والرواية فى تونس حضورا ادبيا يسعى للتجذر والتأصل رغم كل ملابسات الكاتب والكتاب ·

احمــد ممــو

تــونس 17 ـ 9 ـ 1984

محمود بلعيد

سجـــائـر

الشمس تحتجب أولا تحتجب خلف السحب المتراكمة فى روح الصباح أو عند مطلع الفجر وانطلاق النهار ، فالاشجار المرتفعة القائمة طوال الشارع ، المنطلقة الى السماء تتمايل عند هبوب الرياح الآتية من أعماق البحر ، المقبلة من الميناء ، فوق ذؤابات الشجر ، والبناءات الشاهقة ، فتهز الاشجار من رؤوسها المتعالية ، وتعبث بالاوراق الساقطة ، واللافتات والابواب ، والستائر والنوافذ .....

وأمام المغازات ، وأمام قاعات السينما والمقاهى والبارات والمطاعم ، وأمام أبواب العمارات المتداعية الوسخة ، والعمارات الجديدة الشامخة ، فالاضواء تنبعث صارخة تخلب الابصار الوالهة ، والاقدام تدق الارض متأنية ، متخاذلة جذلى ، والسحب المتراكمة ترسل قشعريرة تغزو الاجسام فترتعش لها القامات الملتفة فى ملابسها ، ومعاطفها السميكة ، المزيفة .

وفى الضحى وعند احمرار الشمس وامتداد الشفق الدامى عند المغيب ، تتقدم الاقدام المتنقلة تحت الاشجار طوال الشارع الطويل ، ببطء وثقة واتزان ، وتدق الارض بقوة وعزيمة ، وتمتد امتداد الشارع ، والضحكات تلو الضحكات تنطلق وتتلاحق صادحة ، والمقاهى تدخن وتعج تتخللها حوانيت تشرئب منها رؤوس نكرة سوداء تطل متطلعة بعيون مندهشة فخرة سوداء او مفقودة ، رجال ينظرون ، يعبون ، يقذفون فى الافواه والحلوق ، يكرعون ويسددون النظر الى الفتيات المتهتكات الضاحكات المغربات فى الضحك ، المتنقلات المتمائلات المترنحات ، ينظرون بعيونهم المنتفخة وكؤوسهم معلقة فى ايديهم ، يتجشؤون ، يتساءلون يحملقون بعيونهم النائمة السكرة يخرجونها من محاجرها ، ينظرون بها يتأملون ، يتحسرون يتأوهون وذوات الالوان الزاهية يدققن الارض بأقدامهن دقا متواصلا تحت الاشجار ، متماديا طوال الشارع الطويل بتأن واتزان ودلال مدركات حركات كل المقاهى ، متمايلات تحت

الاشجار الصفراء العارية المقشعرة ، متماسكات ضاحكات متنقلات ، ينظرن ولا ينظرن الى قاعت السينما والمغازات والرؤوس المتطلعة الشعثة ....

السماء مغشاة بسحب أواخر الخريف المنذرة المحذرة بسقوط الامطار المغرقة الجارفة ، وسحب شخماء مرعدة مبرقة ، رمادية أو رصاصية داكنة ، وسحب سوداء كسواد عينيك فى اطارهما الاسود من الشعر الفاحم المنحدر كأمواج ليل فى أعقاب خريف مفزع .

هاك مرآتى أو خذى مرآتك وانظرى عينيك الذابلتين السائلتين من سهر الليالى فأشعليهما ليتألقا فى سماء المقهى ، وانظرى الى شفتيك الذاويتين الذابلتين كأوراق هذا الخريف فأحرقيهما بحرارة وهاجة تلفح الوجوه الظمأى، وتهيئى لهذا اليوم الغائم الرمادى الراكد الثقيل فى المدينة القاتمة الهائمة ، انظرى ، انظرى الى العيون كيف تتقديا روعة العيون ، انظريها كيف تشتعل يا فيض الجنان ، انظريها مبتسمة ، منحدرة الى نهديك فتغمرهما بحار الخيال .

ـ « كان حبيبى يمسكنى من يدى ويطوق ذراعه كتفى ، وكنا نذهب الى مراقص المدينة ونذهب الى الملاهى ونسهر الليالى الجميلة حتى ينجلى الظلام ينباج الفجر ويبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من فستانى فيعود بى حبيبى الى منزلى ويقبلنى قبلة طويلة ..... واذهب الى فراشى ..... وعند عطف ليلة ومرور نسيمها الخفاق على وجهى ، وابتسام فجرها الندى ، ابتسم لى حبيبى وهو يعودبى الى منزلى ، وداعب شعرى وقبل عينى وانحدر الى شفتى فقبلت شفتيه المرتجتين الملتهبتين حتى مسنى حريق ..... بقيت زمنا انظر اليه يبتعد وأنا اشتعل .... ثم ناديته واتجهت نحوه عدوا .... ، وسرت معه وهو ملتف حولى وذراعه على كتفى ، رافقته الى بيته وانا ملتصقة بصدره التهب التهابا ..... بقينا ثلاثة أيام بلياليها نتقلب على فراش الهوى ونخوض بحر الغرام الدامى .....»

تقشعر السماء الداكنة ، تتثاءب لها المدينة ثم تغفو ، وتمر ريح باردة تتحرك لها بعض السحب وبعض الاوراق المنتشرة فتعلو متخاذلة ، وتخفق كل حركة فتبقى معلقة والافكار تحوم حزينة ، هائمة كاليوم البائس الهائم فى سبات كسبات المدينة الغافية .

..... بعض عويل سيارات متشبثة بالوجود ، ومغازات مفتوحة مظلمة خاوية ، وعمارات جاثمة مغلقة ، وغيوم بيضاء كثيفة تكاد تلتصق بالارض وباعة الجرائد يصرخون بأعلى أصواتهم ، يهرولون أو يمرون عدوا والصباح كالمساء كالغروب كالشروق كالضحى كالارجل المتنقلة والمدينة المكفهرة تهتز كصدر غادة في خدرها تبكي في خريف ربيعها بكاء مرا طويلا عن حب خاب وحبيب غاب .

أوراق الخريف تتساقط فتتقاذفها أمواج الرياح الباردة وتعبث بها فترتطم بالعمارات المرتفعة وتلتصق بها تلتف حول ناطحات السحاب والعمارات الشاهقة وتدوم وسط السماء .

الابتسامة المنبعثة من شفتيك صفراء باهتة كأوراق هذا الخريف تساقط فتنثرها الرياح أمام عيون غائمة ، نصف مغلقة أمام قهوة سوداء كمريولك الاسود بخيوط بيضاء متصاعدة ملتوية متعانقة متفارقة وصناديق سجائر حمراء قانية لم تفض بكارتها بعد ، وسعال الجالسة داكن ممتلىء يهتز له قفص صدرها ويختلج ، ويرتج ارتجاجا ، وصوتها المبحوح المنغلق يتهدج ، تؤخذ الصناديق وترفع وتقلب وتدق على الطاولة دقا وتفتض افتضاضا وتنشب فيها مخالب نمرة حمراء وتستأصل منها سيجارة كاليوم الجديد وترشق بين الشفاه الهاوية للاحتراق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ لا تفكري هكذا ولا تهيمي ، ولا تتعبي نفسك ولا ترهقيها لن يعود ، ولن يعود أبد الدهر ، لا تبحثي عنه بعينيك الجميلتين العسليتين الحائرتين كان يأتي الى المقهى ، وكنت تجدينه امام طاولة وعلى الطاولة رمادة وفي الرمادة عشر سجائر محروقة واكثر والآن لا تعللي نفسك بالاماني ، انظري ، انظري الى ذلك الجالس على حدة عند الصارية هو يرمقنا منذ دخلنا ومنذ جلسنا وما ينفك يبتسم الينا .

ـ خذ ، خذ سيجارة من سجائري ، تناول سيجارة واشعل واحدة بل خذ هذه المبللة بشفتي دنوت منك لتقترب مني فتخاذلت وذهلت فستبقى هكذا اطروحة لم تعرض ومقالة لم تنشر وقصيدة لم تلق الى ابد الدهر ؛ هندية سندية روحي من الشرق ، جسمي من العنبر الصافي ، قطر الندى يحييه ، وشذاه يشفي العقول ويروي الارواح الصوادي ، كان حبيبي يمسكني من يدي ويطوق ذراعه كتفي وكنا نذهب الى مراقص المدينة ..... الاصوات تزداد

ارتفاعا وتطغى ، الاحاديث تتشابك والسجائر تعلق فى الافواه وتلقى .... الدخان يعلو مرتفعا معجعجا ، الضحكات تطلق مدوية ، الضحكات تلو الضحكات تتلاحق صادحة ؛ ويطول الجلوس والحديث والترقب خارج المقاهى وأمامها وتحت الاشجار ؛ ويطول الوقوف والذهاب والاياب ، ويكثر النداء ويعود الضحك متتابعا متلاحقا مسترسلا ، ويعلو ويفرقع ، وتنفجر ضحكات تسكت لها كل المقهى وتسكن ويكثر الوقوف عند الاشجار والالتفاف حولها وصديقات واقفات مترقبات ذاهبات آتيات غاديات رائحات متحدثات لى ولك حساب ، وذهاب واياب وجولات لا تنتهى ، نذهب الى بيتنا ونقضى الليلة كلها او نرقص ونعود فى الصباح الباكر ، نحن ذاهبون الى الحمامات ونابل ، نتعشى ونسهر ونرقص ، ينفثون الدخان من الافواه والانوف ، يقهقهون ويتصافحون ، يتهادون ـ صفاء ـ كانت ـ وانستون ـ روثمان ـ مارلبورو ـ يشعلون السجائر ، يرجعون الصناديق الى الجيوب والحقائب ... نعود فى الصباح الباكر ، نذهب الى حاجب العيون ونمضى الليلة كلها فى الجنان ، نرقص ونشطح والتيجانى وعمار والطيب والحبيب وعم طقة أمام براد الشاى يمروح على الكانون ويدلوح رأسه .

ـ اقول لك أحببت أم كرهت ، قبلت أم رفضت ، انى اتيت وفى الضاحية اكتريت واقول له اشتريت بيتا جميلا ، بسوره وجدرانه ونوافذه التسع ، وحديقته الشاسعة ولى كلب للحراسة ، وقطة تموء وتتمسح بى ، وعنزة للحليب ، واسمى خديجة واسمى الآن ليديا ويسمونني ليلى وهكذا انا اعجوبة الضاحية ، وتحفة المدينة وتفاحتها وكانت عندى خدرشة على جبينى فمصصتها وخدخدتها وخدرشتها بماء الفرق ومسككتها وشككتها فانتفت بنفسها وانتفضت وانتهت فصارت ملساء تلمع تحت ضوء النيون والآن اسفت . لو بقيت كما كانت . لبقيت طبيعية ريانة فاتنة كالغصن اليافع الشذى ، يا عمرى .

عندما أخرج محمد صالح مسدسا بيده اليسرى من جيبه الايسر أخرجه بكل هدوء وصوبه نحو ظهر الواقف أمامه وكاد يلمسه ثم اطلق النار فارتج الواقف وسقط دفعة واحدة ، نفخ محمد صالح فى فوهة مسدسه وقبله ثم أعاده فى جيبيه وتابع سيره ببطء ... غاب أسبوعين ثم عاد يضحك مع الضاحكين ويدخن مع المدخنين ويدخل الى المقهى ويخرج ويقف تحت الاشجار ويتحدث مع المتحدثين .

ـقلت لك وحذرتك المرات العديدة ألا تذهبى الى دار التيجانى ولا تركبى سيارته أبدا ، قلت لفاطمة وحذرتها ففهمت وانصاعت وقلت لك أيضا وحذرتك ، والآن طاطئى رأسك أمامه وانظرى الى الارض ٠٠٠٠٠٠

ـ نذهب الى برتمان دليلة فهى اليوم وحدها ، نمضى العشية كلها عندها وحتى الليل كله ، نتعشى ونسهر اذا أردنا السهر وننام ايضا ٠٠٠٠٠٠

لا تتعجلى ، لنا الوقت كله ، لنا العشية كلها ، انا لم اذهب ابدا ، ولن اضع ساقى بالمرة فى برتمانه ، ذهبت دليلة مرة وارادت ان تفر فمسك مقصا واراد ان يقص لها ملابسها وشعرها فصرخت وخبطت على الجدار مستنجدة ثم فتحت الباب وفرت وكادت تنكب فى المدرج على وجهها وهى تصيح تاركة حقيبتها وفيها سبعون دينارا ، قذف بالحقيبة من النافذة الى الشارع فتبعثر كل ما فيها وبحثت عن الدنانير فلم تجد مليما ٠٠٠٠٠٠ سوف تقص عليك القصة بنفسها وهى لا تخرج فى النهار ، وفى الليل لا تجد مشقة ولا عنادا وبذكائها وحدسها تجسم الامور من أول نظرة وأول نظرة وأول اشارة واول همسة واول كلمة والتيجانى لا يشاهدها ولا يراها ولا يترصدها ولا يقف اليها يترقبها فى الشوارع والانهج ، تقف لها السيارات فتختار أحسن سيارة وأفخمها ، وتقتنى أجمل نزل وأشهر مطعم ثم تتجه به الى برتمانها او يتجه الى فيلته ٠٠٠ أحيانا تنقلب عليه حية رقطاء حامية تخاصمه وتلعنه فاذا لطمها لطمة او لطمتين تغير صوتها وجعلت تبكى وتموء كقطة ٠ والا فهى تزعم انها تسكن مع اخيها وابويها وانهم سوف يخرجون له سوف يضربونه ويمزقونه قطعا وأنها اوقفته وركبت سيارته لانها توسمت فيه الخير ، ولانها خرجت متأخرة من العمل وبقيت ساعتين لم تمر أثناءها حافلة ولا تاكسى وانها طيبة طاهرة عفيفة شريفة لم يمسسها انس ولا جان ولا حتى شيطان ، وحرام ان يقبلها او يلمسها او حتى ينظر اليها ٠٠٠ اذا اراد فليذهب الى أبيها ليخطبها منه ولا تظن اباها يقبل ، وتصعد الى برتمانها بخفة على أطراف أصابعها وتغلق الباب ٠ من ورائها وتطلق لنفسها العنان وتغرق فى الضحك حتى تسيل دموعها ، وتشد انفاسها وتستلقى على الارض ٠٠٠ انظرى ، انظرى العيون تشتعل لرؤيتنا ، انظرى هذه السيارة الجميلة ما أجملها ، تقف ، تقف لنا ، سائقها الجميل يفتح لنا الباب ، ما أجمله ما أروعه وما أحلاه ، انظرى ما ابهاه ، هيا ، هيا ، يفتح لنا الباب ، يشير الينا ويبتسم ، يومىء

الينا ... نذهب ، نذهب الى دليلة مرة اخرى ، يوما آخر ، عشية اخرى ، غدا ، بعد غد بعد بعد غد ...

السيارات تلو السيارات تمر ، تزدحم وتكاد تصطدم امام الضوء الاحمر ، السماء داكنة تتشاءب لها الافواه وتغلق لها العيون نصف اغلاق ، عند مفترق طرق تمر المارة ، يقطعون الطريق فى ممرات مؤهلة ، مسطرة بيضاء . يقطعون الطريق ويسرعون وضوء أصفر خفاق ينبه ويحذر ، وسيارات تهدر وتزمجر متأهبة للانطلاق وسيارة جميلة زرقاء فى لون الليل متألقة طويلة لا تنتهى داخلها فتى جميل أنيق بجانبه الفتاتان الوسيمتان متألقتان ... الشفاه حمراء والعيون سوداء والضحكات تلو الضحكات والغمزات تلو الغمزات

ـ أعندك سيجارة ؟

يفتح الشاب محفظته بيده اليمنى ، يقدم صندوق سجائر مارلبورو .

ـ مارسى .

عيناه تراقبان الضوء الاحمر .

ترشق الفتاة الملتصقة به سيجارة بين شفتيها تغرس سيجارة بين شفتيه وشفتى الفتاة الملتصقة بها ، يقدم لها بريكيه ـ دانهيل .

ـ مارسى .

تنطلق السيارات عند اشتغال الضوء الاخضر تتحرك السيارة الزرقاء الداكنة كالليل ، الطويلة اللماعة ، بهدوء ، محركها لا يسمع ، وتنزلق .... وتبتعد .

السائحون التائهون المتجولون فى شوارع المدينة يشربون الشمس فى زرقة السماء . طابور طويل ممتد ، زعر سمر لوحتهم الشمس ، حمر افخاذ النساء قائمة رائعة ناعمة . ألوان زاهية ساطعة بيضاء وحمراء وصفراء . ينظرون الى المغازات المتشابهة المتلاصقة المتناسقة فى صف طويل ، ينظرون يمنة ويسرة والباعة يهبون لمرورهم ، يقفون عند عتبة دكاكينهم ، يهتفون .

السائحون يبتسمون للباعة ، يبتسمون للهواء الطلق ، يبتسمون للمارة ، للشمس ، للسماء . الباعة الواقفون أمام الابواب ينتظرون ، يهللون يبتسمون

يضحكون يستدعون الى الدخول الى النظر بكل اللغات ؛ يستدعون الى تناول الشاى ، الى الحديث الى المساومة • تعال ، اقترب ، ادخل ، تفضل صباح الخير ، يوما سعيدا ، قلب ، جرب ، ارتد البس ، انظر ، امسك المس ، تناول ، خذ • السائحون يقلبون يسألون عن الثمن ، يبتسمون يشترون ولا يشترون ، يتابعون طريقهم بهدوء ، يسيحون ، يسترسلون ، يسيرون ، يتمادون فى السير حتى يصطدموا بجامع الزيتونة وتنتهى زيارة المدينة •

يعودون على أعقابهم ، ينطلقون مسرعين ، يتحدثون مبتهجين • يجلس بعضهم فى بعض مقاهى الشارع الرئيسى وبعض الحدائق العمومية الشاسعة الجميلة وامام السفارات ، يستريحون مسرحين نظرهم ، ينظر الى المدينة ، يتفرجون يتأملون المارة يرفعون رؤوسهم متأملين المدينة عمارة عمارة ، والشوارع شارعا شارعا ويمر بائع السلاسل الذهبية والسلاسل الفضية المزيفة والخواتم المزيفة ، ويمر بائع عكاكز وفرسان وغزلان من شجر عين دراهم ، وبائع سجائر «وانستون» وسجائر «مارلبور» و «كانت» وبائع الجرائد والمجلات وبائع اللامات «شيك» واللامات «جيلات» •••••

جلس ماسح أحذية الى حذاء سائح وانهمك فى مسحه وتلميعه وقامت زوجة السائح فى سروال أبيض يكتظ اكتظاظا ، وابتعدت لتلتقط صورة من جوجو وماسح الاحذية يمسح له حذاءه لتعود بها الى قريتها ، فهذا جوجو فى هذا المقهى الذى يعتبر من احسن مقاهى العاصمة جالس يشرب كوكا كولا ••••• وابتعدت جوجو ماريتا وانتصبت ، ونظرت بعين واحدة فى الآلة وتهيأت • رفع ماسح الاحذية رأسه وقال لها مشيرا بيده : لا • عادت جوجو ماريتا الى مكانها خائبة المسعى فى سروالها الابيض تترجرج من وقع الكلمة محمرة الوجه ، تبتسم •

وانتهى الماسح من مسح الحذاء وتسلم أجرته وأبقاها فى كفه بدون ان ينظر اليها وابتعد • بقيت ماريتا تحكى الى جوجو مبتسمة وجوجو يجيب ماريتا • لا ، تبتسم • تنظر الى العمارات المقابلة لا ، تنظر الى المتجولين الى اللافتات الى المارة لا الى السيارت الى السماء الزرقاء لا الى الشارع ، لا ، لا ، تتحدث تبتعد ، تبتسم تشرب كوكا كولاتها ، لا •

عندما يجن الليل ويقتحم الظلام طرقات المدينة وشوارعها توقد شموع فى اشهر مطاعم المدينة ، وأفخمها ، وتتقاطر على الشمعدان وسط أجواء لا شرقية

ولا غربية وتخفض الاضواء والشموع تذوى وتتمايل فوق الطواول مرسلة أنوارا باهتة تهدأ لها ألوان الآكلين وتهدأ لها حركاتهم وتلين ، ويخف لها اضطرابهم الدائم المستمر ويرتاحون .

ترفع الستائر ويأتى العود والطار والدربوكة والقانون بأغان هادئة مريحة .... ساعة .... ويتغير العزف دفعة واحدة عند اشارة من وراء الستر فينقلب قويا مثيرا ، وتخرجين فى ثوب خمرى شفاف فارعة سمراء تتمايلين ثائرة النهدين ، مبتسمة الشفتين حالمة العينين ترتعشين مع ارتعاش الالحان ، تهتزين مع اهتزازها تتموجين فى ثوبك الرهيف وصدرك المرتفع يختلج .... وتمرين بسرعة على وجوه الجالسين ، وتنزلقين وتميل نحوك القلوب والافئدة وتنساقين كعروس بحر ، تتنقلين على اطراف اصابعك تلمسين الارض ولا تلمسين تقتربين وتبتعدين وترتعش مع ارتعاش الالحان .....

يتمادى الرقص ويشتد .... وفجأة يختل الوزن ويضطرب الايقاع فتقتربين من حروز ضارب الدربوكة وتلتفتين اليه وأنت ترقصين وتشتمينه ، وتسبينه وتكادين تبصقين على وجهه ثم تعودين بوجه مشرق ، مبتسمة الثغر متألقة فى سماء المطعم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

..... ويتغير العزف ويهدأ بعد حين وترقصين رقصا مغريا مناجيا هامسا تصفر له وجوه النساء وتلمع له نظراتهم وتتقد له عيون الرجال وتلتهب شبقا ويخلعون عنك ملابسك الحريرية خلعا ويمزقونها تمزيقا ويشاهدونك عارية ترقصين ويلهبون جسمك ويحرقونك بلحيف زفراتهم ويخترقون جسدك بسهام نظراتهم وانت الجميلة الخمرية ترقصين رقصا مغريا رائعا ، وانت الفاتنة الساحرة تتهادين ، تبتسمين تتمايلين بغنج ودلال الى الوراء وتنحدرين بجسمك كله وتنحدرين بغصنك الفاتن الريان حتى تلمسى أرض المطعم ويعلو الهتاف .

يتغير العزف فيتحول خفيفا لطيفا تمرين بين الطواول وتستدعين رجلا للرقص يقف ثقيلا بطيئا ، تمرين ماسكة بيده لا تتركينه ، تجرينه ، ينتقل بين الطواول بطنا بدينا مترنحا يكاد ينكب ، وانت امامه خفيفة رشيقة يميل ويرقص معك ويخب ويدب ويعلو الضحك والهتاف ...

تمرين بين الطواول وتستدعين رجلا ثانيا ، ورجلا ثالثا ورابعا ..... ويعود الهتاف قويا حادا شديدا لا ينتهى وانت تومئين محيية مبتسمة متألقة وتفارقين القاعة بسرعة ، وتدخلين تحت السلم فى غرفة صغيرة شحيحة النور عديمة الهواء ، كريهة الرائحة ، التصفيق يتبعك وتخلعين ملابس الرقص وعرقك يسيل وترتدين ملابس المدينة وتلمين شعثك وأدباشك وتلتفين فى معطفك الاسود السميك وتمسكين حقيبتك الحمراء الكبيرة وتهرعين بسرعة الى الخارج من باب خلفى حقير وتسيرين فى شوارع المدينة بين المزابل ، وردة جميلة حمراء ، بين الصناديق المكومة العفنة ، بين الصفائح المقنوبة والمبعثرة ، بين القطط المتحفزة الرافعة ذيولها المكشرة ، وتسرعين متجهة الى اضواء أخرى ، الى مطعم آخر ، الى شموع اخرى الى حروز ثان ٠

يسرى نسيم الفجر باردا منعشا نديا تتحرك له المدينة وتفتح له بعض مقاهيها وتنشر الكراسى ، تمرين ببطء وعياء بين الاشجار متأبطة ذراع رجل جديد ، تركبين سيارة جديدة ، يشعل لك سيجارة «مارلبورو» ويشعل لنفسه سيجارا ٠

ـ «الحياة بدونك سوداء ، سوداء كسواد الليل ، لا تمر ساعة بدون ان افكر فيك ، احبك يا نوال ، اهواك يا نوال احلامى ، اعشقك اعبدك تمر الايام ويأتى يوم وأعود ، أعود بمال كثير ، بملايين من الفرنكات الجديدة ، أعود وأطلب فى المطار ان يرافقنى شرطى الى المنزل ..... ونشترى نزلا كبيرا ، ونفتح مغازات تجارة ، ونشترى ـ فيلا ـ فى المنزه وأخرى فى رواد وثالثة فى الحمامات وأشترى لك سيارة جميلة زرقاء طويلة لماعة كما تريدين ملايين من الفرنكات يا نوال ..... يرحب بى المديرون فى البنوك واستقبل بالابتسام والحديث اللطيف والمقعد الوثير وتحضر لى القهوة فى أقل من لحظة ويقدم لى السيجار» ٠

«كل ليلة افكر فيك ، كل صباح وكل مساء ٠ كل دقيقة كل ثانية أود أن أراك وأن أقبل شفتيك وأقبل صدرك .....

ـ تعود يوما وتشاهد نوال أو أنك سمعت كيف أعيش وكيف أهوى وكيف أرقص فى أشهر المطاعم والحانات ليالى السنة كلها ، وأركب افخم السيارات وأدخن أرفع السجائر وأرقص وصدرى الذى تحبه وتعشقه وتهواه عار

وجسمى يتلوى أمام الآكلين الشملين الموقدة أعينهم كالثيران فى شبه ظـلام المطاعم ونساؤهم من حولهم جاثمات مواء الابقار حسرة ولوعـة وأسى وأنـا الغانية ممسكة بقلوب رجالهم لا أتركها ، أتلوى بجسمى العنبرى المغرى ولو لا حروز لولاه وضربه المختل عندما أخرج من نفسى ويذهب عنى عقلى وصوابى لجعلت كل الرجال يركعون تحت قدمى ويسجدون ، يشعر حروز أنى أجن وأخرج من صفتى وجنسى وألتهب وأكاد أنفجر فيخل الوزن عمدا ليردعنى ليعاكسنى ويطفىء من لهيب نارى ٠

٠٠٠ نوال ، نوال التى تحبها وتعشقها وتهواها فى فراش سكارى يفرغون كل ما فى احشائهم على صدرها ، نوال فى فراش سكارى يستلقون وينامون٠٠ ويغطون ، ورجال موحشى البطون والاجسام فأكاد أفرغ كل ما فى أمعائى ، ورجال بهيج هائجهم ويشتد الليل كله فلا يفارقون صدرى والعرق يتصبب منهمرا منهم ومنى ٠٠٠٠٠ نوال يقبلون جسمها قطعة قطعة ، نوال يريدون ان يذبحوها ويأكلوها ، نوال يريدون ان يرتشفوا دمها عوض الخمور ، يريدون ان ياكلوا نهديها فى غمرات سكرهم ، يريدون أن يأكلوا شفتيها ، خديها ، فخذيها زنديها ، رجال كالضفادع ، رجال كالقردة ، رجال كالدببـة ، رجـال غريبة وجوههم ، قبيحة أجسامهم مقنعة مفزعة ٠٠٠٠ وعند ، رجال جميلين رائعين كالآلهة عندهم أفـرغ همى واتـرك نفسـى وأقضـى أروع ليـالى عمرى ٠٠٠٠٠ ٠

ليل ٠ يتقدم ٠ ليل ثقيل غريب رهيب ٠ تنام له المدينة وتهجع الا من بعض حركات وبعض أضواء وبعض مارة ومتسكعين وقطط تموء مواء طويـلا موحشا ، وفئران تجرى هلعة وجرابيع عظيمة بشعة تركض بين المزابل وتنقض على الفضلات ٠٠٠ ليل يتقدم ويمتد ٠٠٠ تمرين فى الشارع ٠ حقيبتك الحمراء فى ذراعك ٠ بعض تكسيات تسير ببطء مترصدة المتأخرين من السهارة ٠ تشيرين الى واحدة تركبين ، يهدر المحرك ويستيقظ وينطلق السائق ، يفارق الشارع الرئيسى ، يعرج يمنة ويدخل نهج باريس ٠٠٠٠ يلتفـت اليـك ويبتسم ابتسامة اغراء ابتسامة كريهة باسنان عفنة سوداء تتمايل السيارة ، تنقلب الدنيا أمام عينيك وتدور ، تمسكين ببطنك وتلقين رأسك على المقعـد الامامى ٠٠٠٠ آلام ٠٠٠٠ دوران ٠٠٠٠ اغماء ، تنكبين بجسمك كله على المقعد الامامى ولا تتحركين ثم تقذفين كل ما فى بطنك ٠ يهتز السائق اضطرابا ، تفرغين كل ما فى أمعائك ٠ يسألك السائق جزءا هلعا ،

ـ ما بك ما بك ، ما بك لا بأس عليك ،

تجيبينه بصوت خافت :

ـ عفوا ، عفوا مريضة ، انا مريضة !

يسألك بحيرة ·· وتوسل ·

ـ أتريدين ان اذهب بك الى مستشفى !؟

ـ لا لا شكرا ، شكرا ، كنت فى مستشفى ، خرجت منه الآن ، شكرا ·

يتابع السائق سيره مرتبكا ، وتتابعين قائلة ·

ـ الى المنزل من فضلك ! ، الى المنزل !!

تغمضين عينيك بدون أن تشعرى ، تشتمين خليطا من السجائر والاطعمة والخمور والعرق ، تشاهدين شموعا ، تدور ، تلتهب ، تلهب كل المطاعم ، رجالا يهبون واقفين يفارقون الطواول غلاظا شدادا ، يصيحون والشوكات والسكاكين فى ايديهم ، حفاة عراة يجرون وراءك يقتفون اثرك ، يصرخون صراخ المجانين ، وتفرين ، تفرين صارخة مستنجدة مستغيثة تصرخين بأعلى صوتك صرخات مدوية يهتز لها السائق وترتج لها السيارة ارتجاجا ····· يخاطبك بصوت مرتفع :

ـ لا بأس ؟! ، لا بأس عليك ؟! ، أعود بك الى المستشفى ثانية أحسن !!، أنت مريضة تهذين !؟ مريضة حقا ؟!!

تفتحين عينيك ، تعودين الى نفسك رويدا ، تفتحين النافذة بصعوبة هامسة:

ـ أشعر بالاختناق ، أختنق ، أريد قليلا من الهواء ، من فضلك ، أنفاسى تتوقف اوه ·! أوه !!!

يوقف السائق سيارته هلعا ·

اتركنى انزل ، أتركنى أنزل !!

تنزلين ·

ـ بارك الله فيك ، بارك الله فيك ، مريضة أنا مريضة ودائى فى كبدى ، أريد أن أسير ، أن أسير وحدى ·

تترنحين فى نهج باريس ، تستنشقين نسيم الفجر ، تملئين رئتيك مرات، تسيرين ببطء ، يعود اليك بعض هدوئك ..... تمر بجانبك سيارة أنيقة زرقاء فخمة ضخمة تلمع ، تقف على بعد امتار ، تترقبك ، يفتح لك سائقها الباب ، يشير اليكا ... تسيرين ... تتقدم السيارة ... تقف ثانية يشير اليك سائقها ثانية ...

المغازات تلو المغازات كامل نهج باريس تعرض تحت أضواء النيون أزياء جميلة أنيقة مزيفة خادعة ، تسمعين صوتا بعيدا يقترب شيئا فشيئا مادحا :

ـ أنا نحبك .

والله نحبك .

وديمه نحبك .

ونبقى الليل وطوله اترقب فيك .

قل لى ، نحب نحطك يا حبى فى قلبى .

أنا المشيه امتاعك تعجبنى

اعشق قدك .

أعشق روحك .

احبك .

الدنيا حرام .

والله حرام .

والله حرام .

بدونك أنت

يا ليلى يا عينى .

يا ليلى يا عينى .

تتابعين سيرك ، تشعرين براحة ، يزل الغناء بردا وسلاما على صدرك المحترق ... تصلين الى آخر نهج باريس ... وسط ساحة الباساج شاحنة عظيمة يهدر محركها ويئز فيطغى على صوت السكير ، يرسل عامل من خزان

الشاحنة مياه قوية تيارات جارفة تدفع الاوساخ بقوة دفعا بعيدا ، تكومها أكواما عند الارصفة فى أواخر البطحاء ... تقطعين الساحة وتدخلين نهج لندرة ... تتابعين سيرك ، تسرعين بدون ان تشعرى ... ويعود الصوت من جديد دافئا من جديد على بعد ويطفو .

ـ المشيه امتاعك .
المشيه امتاعك تعجبنى .
الجيب امتاعك يتمايل .
والمعطف يتبختر .
انا نموت على حبك .
على قلبك .
على قدك .
على الخطوه امتاعك .
كل ليله استنى حتى أشوفك
نشوف قدك وأغنى .
كل ليله اشوف خيالك .
فى المنام .
كل ليله افكر فيك .
كل ليله .
كل ليله .
يا ليلى يا عينى .
يا ليلى يا عينى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعض عملة البلدية منهمكون فى الكنس والتنظيف فى نهج لندرة ..... متشردون يتشاجرون فى الانهج والازقة الخلفية ..... يعـوون كـذئـاب جائعة .... يبتعد الغناء شيئا فشيئا .... يبتلع السكيـر ظـلام الانهـج الضيقة فى أعماق المدينة .

تصلين الى عمارة مغلقة ، تخرجين مفتاحا من حقيبتك الحمراء ، تفتحين باب العمارة بهدوء ، تشعلين ضوء المدرج ، تصعدين بدون دوى ، الى الطابق الثانى ..... تفتحين باب شقتك ، تشعلين النور ... صوت أمك يسألك

ـ نوال أنت !؟

تجيبين .

ـ نعم يا أمى ، حيرتك ؟!

ـ لا لم أنم .

ـ جميلة تعشت ، ألم تتعبك اليوم .

ـ كلا كلا أبدا تعشت ، لعبت قليلا ، شاهدت معى التلفزة ثم نامت ، العشاء على الطاولة ، اعطنى شربة ماء .

تمدين لها حلاب الماء .....

ـ بارك الله فيك ، العمل العمل فى الليل يرهقك يا ابنتى ! أخاف عليك الم يقلقك احد !؟

ـ كلا ، كلا .

ـ هم الزمان ، هم الزمان والا ما عملتى الليل والمستشفى بعيده ..... حتى لو كانت قريبه ، كيف العمل اليوم .

ـ لا بأس ، لا بأس نفس المرضى هذه الايام .....

ـ الم يتعبك أحد ؟!

ـ اكلوا كالعادة ، تعشوا كلهم ، شربوا أدويتهم ، سهروا قليلا ، فتح بعضهم الراديو ... ثم ناموا .

وتتجهين الى فراش ابنتك ..... ثم تذهبين الى بيت الحمام .

محمود بلعيد

محمد الهادى بن صالح

مـن حقـــه أن يحلـــم

II

يشهد الجميع شهادة حق لا شهادة زور انهم لم يروا أبدا الاستاذ يفلت زمام نفسه مثلما حصل فى تلك الجلسة • ويشهد الاستاذ انه لا يذكر ابدا انه خرج من قشرته مثلما خرج منها فى تلك الجلسة • ثم ما هى حكاية الاستاذ هذه ؟! والحال انه لم يشتغل بالتدريس قط • والحقيقة ؟ • حكاية قديمة لا بد من تصحيحها • فهو لا يذكر الا انه غادر قاعة الجلسة • وهو لا يذكر كيف خرج من بابها الضيق • وهو لا يذكر كيف قطع المسافة التى تفصل القاعة عن المحطة • مسافة رغم قصرها محفوفة بالمخاطر والاهوال حتى قال بعضهم : «ان فى كل خطوة يكمن الموت الزؤام» •

وقف لاهثا موتورا •• كأنه كان يركض مسافة العشرة آلاف متر • تلك المسافة التى يجره على ركضها قهرا صديقه الرياضى المتأدب • أو الاديب المتريض •

قائلا :

« اجر • اجر • الجسم السليم فى العقل السليم • »

كان يحاول اقناعه بأنه لا يرى ذلك • والعكس أصوب • وما الآلام الا دافع للابداع ؛ فأغلب العباقرة كانوا من المعاقين أو من الذين جروا وراءهم ـ عبر مسافات حياتهم ـ أمراضا مزمنة أو عاهات مزمنة •

غالبا ما كان يقف • خائبا فى الالف متر الاولى • وقد يجتاز الالف متر الثانية وقد يركض نصف المسافة غصبا فيبقى أياما عديدة طريح الفراش يلعن نفسه الجبانة التى طاوعت صديقه فى تصرفاته الرعناء المجنونة الصبيانية الحمقاء . ما ألجأه الى ذلك ولم يعد طفلا من أمد بعيد . فهو لا يذكر ان كان قد

نظر يمينه وشماله قبل ان يجتاز الطريق مثلما كانت أمه توصيه لما كان ذاك الطفل الصغير الذى يحمل محفظته على ظهره زائحا أم عائدا من المدرسة · أم أنه كان ذاك «العجروف» القروى الحائر الواجف الهائم على وجهه فى طرقات المدينة · لا يعرف أين تكمن له المصائب وأين تهدده الاقدار · فهو بطبعه حذر · مدنى · ورغم ذلك فقد ارتكب حماقة لا تعادلها حماقة · لعن الله الغضب الذى أفقده صوابه حتى صار يتمتم وحده :

«أنا لا أرفض الحوار ولكننى أرفض أن يكون مخاطبى وقحا · ألمثلى أنا يقال تافه ؟ يا تافه ؟! يا وقح !»

فى قرارة نفسه أنه لا يعود الى ذلك المكان · ولن يسمح لحقير آخر أن يتطاول على ··· ماذا ؟!·· مقامه الرفيع مثلا ! صرحه الشامخ الادبى مثلا ! مهزلة · مهزلة · أى مقام رفيع هذا الذى يزعم ؟ وأى صرح أدبى شامخ هذا الذى يزعم ؟ وهو الذى كان من لحظات معدودات فقط يلعن الزمن الكلب · زمن الاذناب · ثم ماله يتقازم · يتقازم ويتقازم · حالة تنتابه لما يكون شحنة غضب · ولما يكون شحنة غضب يكون كومة تناقض · رحم الله أبا الطيب حين قال :

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

«لاكن دائما ذاك المغرور · وكيف أهدأ وهناك من داس كرامتى · وهناك من أهدر دم كرامتى · أى كرامة يا هذا ؟ والزمن بلا كرامة · وقد سبق أن قلت فى ذاك التافه : انه زق تفاهة ·»

ما تعود ان يعالج نفسه وهى ثائرة مهتاجة كالبحر · فهو يدرك حق الادراك أن من صارع الموج صرعه ، ومن تبع التيار جرفه ·

« ما ذكرنى بالبحر ؟ » ·

كانوا جماعة يواجهون البحر · بل كانوا جماعة حول منضدة العشاء على شاطىء البحر يأكلون ويشربون باسم الادب والثقافة · وكانت مؤخرة مضيفهم كبيرة جدا تملأ كامل فضاء الكرسى · كانت تلك الايام أحب أيام حياته الى نفسه · تلك الايام التى يقضيها فى حصار بعيدا عن الضجيع · يأكل وينام ولا يفكر · يكون صحبة مجموعة صغيرة نظيفة جمع بينهم الود

والمعرفة والمصلحة الواحدة · لا أحد يشاكس أو يعاكس الآخر · وكلما أبدى أحدهم فكرة الا نالت استحسان الجماعة وقوبلت بالتأييد والمساندة · غالبا ما يلوكون فكرة واحدة لمدة قد تكون بضعة أيام ثم يلفظونها كقطعة العلك ثم يخرجون من تلك الجنة الهادئة الى عالم الضجيج · حلبة صراع · وينصرفون مكرهين فى انتظار موعد آخر · ولا يكون انصرافه عنهم كانصرافه عن هؤلاء · كان يفارقهم بنفس هادئة مطمئنة حزينة · لا بنفس هائجة ثارة رافضة · ما تعود أن يعالج نفسه وهو فى أحلك حالات غضبه · حقيقة ان ضربة بندير واحدة تدروله وحقيقة ان كلمة واحدة ناشرة ترجه . ولكنه كان يعرف دائما كيف يشد لجامها ويكبت جماحها ويمنعها من الخروج عن طاعته · كان دائما يضعها فى مكانها المناسب الذى غالبا ما تذمر من عدم ملاءمته للرجل الذى هو المناسب · كان على رئيس النادى ان يضع ذاك المغرور فى مكانه المناسب · كان عليه زجره كأن يقول له مثلا :

« بلع » ·

كلمة سوقية ليس لها رواج فى النوادى الثقافية · فليقل له :

« صكر » ·

كلمة اخرى سوقية لا تجد الرواج فى الاسواق الادبية · ليقل له :

«تفرقش» ·

لا لوم عليه وهو من دعاة الكتابة بلغة العامة حتى يكون أدبه جماهريا شعبيا · ما هذه الكلمات السوقية ؟!»

ليقل له مثلا ان اراد ان لا يحرج نفسه ، فرنسيا :

«بوكل لا · فوزات آن سانج · أو بيان آن بوريكو» ·

أو أنقليزيا :

«شوت ـ آب يور موث · بيكوز يو آر أو دونكى أور أو مونكى » ·

لا يهم أن يكون حمارا أو قردا · ففى الحالتين جائز · كان عليه أن يلومه قائلا :

«عيب · عيب يا تافه» ·

نعم ليقل له : عيب يا تافه ولا حرج عليه · فمثلما قالها بكل بساطة يتقبلها بكل بساطة ؛ فالذى لا تكون له رقابة على لسانه لا تكون له رقابة على أذنه · وكما يدفع يستقبل مهما بلغت بذاءة اللفظ وقذارة الكلمة · ما هكذا يصادم كويتب مثله عملا ابداعيا قد يصبح فى يوم من الايام من روائع الآداب العالمية· وهو من روائع الآداب العالمية مثلما أشار الى ذلك ذاك التافه حين قال :

«أعتبر هذا العمل تشويها لاثر رائع من روائع الادب العربى · بل من روائع الآداب العالمية بدعوى استغلال التراث · فلا يكفى اعادة عملية الكتابة اضافة بندير ينقره مداح» ·

ساانده فى الرأى متحامل آخر فقال :

«البندير ليس له دور هام فى حياتنا اليومية مثلما هو الحال بالمغرب الاقصى» ·

ثم نظر اليه سائلا :

«أتنكر هذا ؟»

لولا زيارته لذاك البلد ؟ لولا اتصاله ببعض أهل المسرح من أولئك الذين وظفوا الفرجة وأغلب عناصر الفنون الشعبية فى مسرحهم لنسى المداح والبندير وبطحاء الحلفاوين والعيساوية والقادرية وكل الاحزاب والطوائف · لقد عاش التجربة ولم يكن ذاك الحمال الذى تبع الجارية من سوق الجزارة الى بطحاء الحلفاوين الى سوق سيدى عبد السلام الى باب العسل الى العمران الى قصر فخم بحديقته الوارفة الظلال بخمائله الكبيرة حيث وجد سبع بنات شبقات متلهفات الى جسد قوى دافىء خشن قذر · البعد الحضارى · الخطأ فى التقدير · الا يمكن ان يكون هذا الحمال منهوك القوى من عمل اليوم ؟ رغم الاختيار · المهم انه كان يطالب دائما بشىء من الموضوعية · كان دائما يقول :

« ابحث · تأمل · لاحظ · تعمق · دقق · ثم تكلم · »

كم نادى بهذا النادى بضرورة تغيير أساليب الحوار · واليوم ها هو ذا يصرح معلنا تدهور أساليب الحوار · فبعض النفوس ترفض الحرية · كان

بوده ان يرى خلقته والغضب يشد خناقه • يقتله • لا بد ان وجهه كان احمر أزرق كقطعة الرئة ولا بد ان خصلات شعره الطويل كانت تنتفض مع كل حركة من حركات رأسه فتنزل على جبينه المتصبب عرقا من أثر الحنق • يكون كأى رئيس جوقة موسيقية • لا بد ان «جلغته» كانت واسعة جدا • ولا بد ان رذاذ بصاقه قد تطاير على وجه من جلس قدامه • ولا بد ان الفزع قد انتاب اجلميع ولا بد ان •••

قرأ مرة ذاك التافه شيئا تافها قال : انه قصة • ويقول انها شعارات سياسية • كان عليه ان يكتبها افتتاحية لاى جريدة لاى حركة معارضة • رغم انه نادى فيها بالرجعية فرد عليه بكل ثقل تجربته الفنية : اننا فى هذا العالم الثالث المتخلف بحاجة الى كل فكر تقدمى هادف • واتهمه بالرجعية • قبل الهزيمة • لكنه صاح معه : يا خيبة الثورات • رددت المصادح وراءه : يا خيبة الثورات • وطغى صوته على كل الاصوات • رائع أن تتقاذفه الاصداء• رائع • وهزجت الجماهير مرددة معه «يا خيبة الثورات» • وكتب رائعته الخالدة التى نزلها بعضهم ، حسب ارادته ، منزلة الكتب المقدسة • كان عليه ان يكتب وكان عليهم ان يشرحوا ما غاب عنه كان عليهم ان يستقرؤوا الاثر• أن ينقبوا فى جوفه فيستخرجوا منه درره • ما خطر بباله وما لم يخطر بباله وبال من أطلقها صيحة كتمت فى حلقه «يا خيبة الثورات» •

«يا خيبة الثورة ! يا خيبة الثورة ! أعترف بخيبتى • واعترف ••• سارق» •

ـ أهلا أستاذ •

لن يرد الاستاذ • لينفلق هذا المنبطح •

ـ ما قولك فى مستوى الحوار ؟

ـ قداش التسكره ؟

ـ أربعين •

أأربعون مليما أم أربعون شيطانا أم أربعون أربعون حمارا أم أربعون قردا أم أربعون سارقا أم أربعون ؟••• لن يقول له : ان مستوى الحوار هابط

جدا · ولن يقول له : انه لا يرى مستقبلا لهذا النادى · ولن يقول له : إن لا بد من عملية تطهير · كان عليهم ان يتأملوا · أن يلاحظوا · أن يدققوا · كان عليهم أن تكون لهم رؤية خاصة للاشياء · رؤيته مثلا تختلف فى شكلها ومضمونها عن رؤية أى انسان آخر · رغم ما اتهم به من أن رؤيته كانت دائما «حمائمى» · ورؤية «جويس» ليست هى رؤية «المعرى» · ماذا يرى «المعرى» ؟ الباب الذى خرج منه · ما له يبتسم ؟ أهذا زمن الابتسام أيتها النفس اللئيمة ؟ ولكن الشاعر قال «خرج الباب ولم أخرج ···» ما أزوع الصورة ! لقد قال حقيقة أنكرها عليه الكثير · ولكنه قبلها مجردة · فهو مغرم بمثل هذه الصور أو كما قال أحدهم ـ وقد يكون صادقا ـ بمثل هذه الخزعبلات اللغوية · لقد قال مثل هذا أحد النقاد لما كتب رائعته «الندم» المهم انه اجتر هذا الشاعر ولم يكن قد هضمه · وهل أصبح عنزا ؟ بل يراه مجددا وهو أيضا من المجددين أو هكذا يحاول أن يقنع نفسه · وهنا يفتح ملفا لقضية هامة ويطرح سؤالا هاما جدا · ما هو التجديد ؟ يرى أنها تهمة ألصقت بكتاباته · وارتضاها طائعا لكتاباته التى يرى فيها البعض عكس هذا وما هو الا لص قذر وما كتاباته الا مسخ أو تشويه لآثار جليلة أو تطبيق فاشل لما جاء فى مقال نقدى كتبه «ميشال بيطور» حول رواية «جويس» «فيناقن س ويك» · واستنجد بعنوان «لآثر كوستر» · ويزعم أنه مجدد رؤيته صفراء · فرؤيته للباب فى حد ذاتها رؤية جديدة · هكذا يؤكد · رغم احساسه بأنه يغالط نفسه · رغم احساسه بأنه يخادعها · كم مرة وضع السؤال : «أين ملامح التجديد فى كتاباته ؟ كان يقنع نفسه أنها تكمن فى رؤيته التى تتجاوز رؤية هذا المتقامىء حذوه · تصور فى لحظة ما أنه عبده · وعبده المطيع · يسأله فيجيبه بلهفة :

ـ قداش التسكره ؟

ـ أربعين ·

أأربعون مليما أم أربعون شيطانا أم أربعون حمارا أم أربعون قردا أم اربعون سارقا أم أربعون ··· ما لهؤلاء قد أضاعوا الدقة · انه يعرف وهو يعرف وهم جميعا يعرفون انها أربعون مليما ورغم ذلك يحاول أن يتجاهل · ثم ماله يسأل للمرة الثانية عن ثمن تذكرة ركوب الحافلة ؟ كأن أمرها يهمه كثيرا · أو كأنه لا يملك ثمن هذه التذكرة أو كأنه يركب هذه الحافلة للمرة الاولى ·

ـ قداش قلتلى التسكره ؟

ـ أربعين ٠

ـ أربعين ٠

تصور فى زمن ما أن هذا الواقف حذوه عبده ٠ كان بامكانه أن يدوسه كما يدوس الارض وكما يدوس حشرة مؤذية أو مسالمة دون أن ينتبه لوجودها ٠ فأحس بلسعة برد على أصابع رجله ٠ نظر الى حذائه فلاحظ نفور نعلـه عن ظاهره ٠ هزه الخوف لم يعد بامكان هذا الحذاء أن يقاوم رطوبة الشتاء وسيلان المطر وربما تهالك الثلوج ٠ واتلاف حذاء ليس من السهـولة التى يتصـور البعض ؟ ما ذكره بحذاء «الطنبورى» ؟ كانت تلك الحكاية من أوائل الحكايات التى صادمته بالمطالعة ٠ رحم الله «كامل كيلانى» ٠ قرأها المرة تلو المرة فكان يجد فيها متعة لا يمكن وصفها ٠ وكانت متعته تتجدد عند كل قراءة ٠ ورغم قلة ضحكه فقد ضحك وضحك وضحك وها هو يضحك ٠

ـ أستاذ آش يضحك فيك ؟

ـ الضحك نعمة نحن فى غفلة عنها ٠

لقد التقط كلماته ملهوفا ولا بد انه مدونها وحافظها وسيفخر ذات يـوم لما يكو نالاستاذ تاريخا بأنه روى عنه هذه المأثورة ذات مساء خريفى وهمـا على المحطة فى انتظار حافلة وقد يضيف الى ذلك ان الاستاذ قال له أيضا سائلا: أهذا زمن الضحك ؟ أم انه يدارى خيبته وانزلاقه قدام هذا التافه الذى تصور ذات مرة منذ لحظات مضت انه عبده الذى يكون بامكانه أن يـدوسـه كما يدوس الارض وكما يدوس القاذورات وكما يدوس الحشرات المؤذية والمسالمة وهو يدخل باب العمارة التى يسكن بيتا صغيرا فى أعلى سطحها ٠ كان فيما مضى بيتا للصابون ٠ ماذا فعل له المسكين ؟ من باب الاحتياط ٠ سيتطاول عليه ذات يوم ٠ نعم وسيقول فيه ذات يوم مثل ما قال فيه ذاك التافه : انه لص وتافه ٠ يسبق الاحداث ٠ كتب مرة فى ركن بهذه الجريدة التى يشرف على اعداد ملحقها الثقافى «لقد حان الوقت لتنظيف مدينتنا وتنظيف أدمغتنا» ٠ وانتظر أن تهتز البلاد لهذا القول لكن البلاد لم تحرك ساكنا ٠ بقيت تغفو هائمة فى خمولها ولم يهتز لقوله آخر غيره ٠ ثم خمد حماسه وحماس كل من كان على ستعداد للاهتزاز بل للانتفاض بل للثورة آه يا زمن الثورة آه ٠

«ولكننى أشعر أننى وقعت فى شباك ذاك التافه وناديت وعـى بصـوتى الصداح : يا خيبة الثورة» ٠

الزمن يدب ثقيلا ورواد النادى يخرجون فرادى ثم يقفون بالقرب منه ٠ يطلق له بعضهم التحية ٠ يتجاهله بعضهم الآخر ٠ بل يتحداه بعضهم ٠ مـلامـح التحدى فى كل تصرفاتهم ٠ الحافلة الملعونة تأبى أن تطل ٠ ألم يقل : انه التخلف ٠ هؤلاء لا يشعرون بأهمية الزمن ٠ اشترى من مدة كتاب «الفضاء والزمن» ٠ كان يتصور أن الدراسة أدبية صرفا فما راعه الا أنـه يجـدهـا دراسة علمية تاه فى رموزها ٠ رمى بالكتاب جانبا دون أن يقرأ منه فقـرة واحدة ٠ ورغم ذلك فهو ما ينفك يستشهد فى كل المحافل الادبية بما تصور انه جاء بين دفتى هذا الكتاب ٠ ألم يقل أحدهم : انه «التهييب» و «التهييب» اصطلاحا فى الذاكرة الشعبية معناه ان ينفخ «الانسان» فى نفسه حتى يصير «كالهر حاكى صولة الاسد» ٠ و «التهييب» أن توهم سامعك بأنك أكثر منه علما وأعمق معرفة وأقوى شوكة ٠ كان لا بد أن نعى بقيمة الزمن ٠ ما معنى أن يقضى أديب كبير مثله قرابة النصف ساعة على الرصيف يدير أصابعه ويلوك غضبه دون ان تأتى حافلة واحدة ؟ لا يقال يلوك غضبه ٠ بل يجتـر غضبه ٠ يلوك أو يجتر سواء ٠ قضية هامة جدا لا بد من الفصل فيها ٠ فلاك ليست مرادفة لاجتر ٠

«سنعالج الامر بعد ٠ سنعالج الامر بعد» ٠

أليست هناك أوراق فى انتظاره قابلة للتنظيم والتوضيب والمـراجعة ؟ أليست هناك مطاعم ، بل أليس هناك مطعم واحد سيغلق بابه دون أن يتمكن من تناول سلاطته المشوية ٠ لا ٠ لا ٠ لا هذا انخرام ٠ هذه فوضى ٠ سيكتب كلمة الحق فى هذا الموضوع وسيفضح مؤخرة الحقيقة ٠ لا وجه الحقيقة ٠ اذ ان للحقيقة عدة وجوه قابلة للتلون ٠ يراها الرائى حسب مزاجه ٠ وحسب زاوية الرؤية ٠ رؤيته للباب ـ مثلا ـ تختلف عن رؤية هذا التافه الذى سكن جانبه فى انتظار كلمة واحدة يعطف بها عليه ٠ لن يتكلم ٠ لن يتكلم ٠ لينفلق فهو يكره مثل هذا الرهط المتواطىء أهون عليه أن يصاحب مثل ذاك الاحمق المغرور المتحامل عليه وعلى كتاباته من أن يعاشر مثل هذا الرهط المتمسكن ٠ هو من عملائه ٠ هذه حقيقة ٠ بدأه بالكلام ولـن يكلمـه ٠ هكـذا قتضـت استراتيجية الهجوم فليواصل تأمله للباب الذى خرج منه ٠ هو باب حديدى

دون شك • على هذا الباب الحديدى زخارف ساذجة • يتأملها من قبل • يتأملها من دبر • يتأملها من الجانب الايسر • يتأملها من الجانب الايمن • فى كل مرة كانت الزخارف تشكل زينة مختلفة • من هنا انتفت صفة السذاجة فى هذه الزخارف • وكان هو الساذج • المهم أن هذا الباب المطلى بالازرق ••• وهنا خطأ آخر • من قال : ان طلاءه أزرق ؟ ومن بامكانه أن يثبت ذلك ؟ رغم أن رؤيته ـ هو العبقرى ـ تختلف عن أية رؤية أخرى لاى انسان عادى بسيط بساطة هؤلاء التافهين الواقفين على الارصفة • السابحين على الارصفة• الخلق يا أنتم ضرورة تفجرها المعرفة • وأنتم يا أنتم جهلة • كلهم جهلة • عميان • ليست لهم رؤية • لا بد أن يكون فى رؤيته «جويس» أو «بروست» أو «فوكنر» أو «سيمون» أو «بيكيت» أو «سيلين» أو حتى «دوستفسكي» •

«الله يرحمك يا دف • أوحلتنى مع هؤلاء ورحلت • للواحد منهم ألف عين وألف أنف وألف أذن وألف لسان وألف اصبع وليس لى الا عينان اثنتان وأنف واحد وأذنان اثنتان ولسان واحد • بل لسانان اثنان • وعشرة اصابع فى اليدين ومثلها فى الرجلين • ورغم هذا فلن تكون رؤيتى للباب رؤية أبى العلاء لا فى التزامه ولا فى الزامه • لتكن رؤية أبى العلاء فى غفرانه •

المهم • لن يكن هذا الباب مثلثا ولن يكون هذا الباب أبيض أو أسود • وهنا سبق له أن قال : انه الخطأ • لو انحرف قليلا فلن يرى أبدا هذا الباب مستطيلا • ولما يتقدم المساء وتكون الشمس تنحدر نحو المغيب فلن يكون لون الباب أزرق . لن يكون الا لونا كئيبا كآبة نفسه المهتاجة . تجتاحه انفعالات تحرك وتذكى نار الخيبة فى داخله • تأججت الكآبة • كآبة اكتسحت كل تصرفاته التى بدت يائسة . كان كئيبا كآبة مالك الحزين جدا . وقد تراكمت على رأسه سحب القلق والملالة • لم يعد بامكان أربع قوارير من الجعة أن تبددها • أن تحطمها أن تنسفها • ما هذه الالفاظ الحربية ؟ لا عجب وهو صاحب الطليعة ! ما سر هذا السائل العجيب ؟ هذا السائل الذهبى ؟ ليقولوا : ادمان •

«أبنت الشعير • وقد ذقت كل بنت فلم أجد ألذ منك طعما» •

له صديق ـ والاصدقاء قلة ـ يقول له صديق متزوج يستلطفه فيستلطف هو زوجته • سيمر عليه زائرا فستدعوه المرأة للعشاء وكالعادة سيرفض

الدعوة · وكالعادة سيعلن تبرمه من نظام التغذية · خاصة مـأسـاة هـذا العشاء ·وكالعادة سيتحدث فى شؤون الادب الملعـون والثقافـة البائسـة والمسرح المنهار ضاربا بوجهه عرض الحائط · مشمئـزا · وكالعادة تقـوم المرأة بواجب الضيافة فتقدم له القهوة فى فنجان صينى جميل الزخرف · كم تحسن تلك المرأة تقديم القهوة · فتنظر اليه بعطف وينظر هـو الى منبـت نهديها تتضوع منها رائحة ذكية كرائحة المسك · هل شم مـرة واحـدة فى حياته رائحة المسك حتى يعرفها ويشبه بها ؟ كثير من المفاهيم والتعابير قابلة للمراجعة · غالبا ما توخذ جاهزة · وسيتحدث زوجها كعادته ثائرا لائمـا هذا المجتمع الذى لا يتفاعل مع الثقافة الا بنصفها السفلى بينما يتهالك عـلى ممارسات أخرى قد تكون مضرتها أهم من نفعها · وخاصة كرة القدم · لعبة لا يراها نامية الا فى المجتمعات الفاشسيية · ثم لا يتورع فى المطالبة بتحطيم وتدمير كل الملاعب · ولما يتطرق الحديث الى المطالعة فهو يندب حظ الكتاب الذى لا يراه الا موظفا توظيفا سيئا بالمدارس · ثم يتحدث حزينا كئيبا كأنه فى مأتم عزيز لديه ناعيا حظ الكتاب والكلمة بصفة عامة فتنظر اليه الشابة حزينة أيضا مهتمة لهمومه مواسية له بعينيها السوداوين · وهو مصلـوب الهامة · ولما تصادف نظراتها نظراته كان يهرب منها واجفا الى الحـائـط · ليتها تدرى ! ثم يغادر الدار صحبة زوجها · وقد تصاحبهم لجولة ليلية عبر شوارع المدينة أو لسهرة مسرحية ـ خاصة اذا كان مدعوا لذلك ـ · كان كافرا بهذا اللون من التعبير الفنى الذى أطلق عليه ذات مرة باحدى افتتاحياته الصحفية بالفن البدائى · ولكن الاغراءات المادية دفعته اليه مرغما · ضاربا بكل مبادئه عرض الحائط · وكتب للمسرح «صراع» و «ثائر» و «بيت الحكمة» و «ما فى الجبة الا الله» و «شمشون ودليلة» و «خليفة الزناتى» والقائمة طويلة لا يمكن حصرها بسهولة · ثم أعاد كتابة «السيرة الذاتية لعنترة بن شداد» و «رسالة القين والجوارى» و «الكوميديا الالاهية» حول هذه المسرحية هاجمه «أبو حيان الكلبى» واتهمه بالسرقة بل ذهب الى الاستظهار بكتـاب لاحـد المتصوفة المغمورين · والحقيقة ؟

«الحقيقة أننى لا أعرف هذا الصوفى ولا أعرف كتابه» ·

الحقيقة ؟

«أأنكرها حتى على نفسى · أما أنا فانسان مغفل · الحقيقة أن الكتـاب مغمور · والحقيقة أن الكتاب وقع بين يدى ذات مرة وأنا أبحث عن الكتب

الصفراء · والحقيقة أننى تناولت الكتاب بالفحص والتدقيق وأخرجت منه ما يفيد الناس · فما الفائدة من نص مغمور ؟»

أليس هو الداعية الى تناول نصوص أهملت واعادة الحياة اليها باسماء جديدة مع ادخال شىء من التهذيب والتشذيب · وسيرى الامر اثر انتهاء الحملة المسعورة التى يشنها عليه «الكلبى» وجماعته · وسيرى الامر على ضوء نتيجة الصدام مع كلابه الذين يأمرهم فينبحون ويأمرهم فيسكتون · كان يقول :

«العاقل من ربى كلابه قصد حماية نفسه» ·

تقف الحافلة فجأة · يلتفت وراءه متطلعا من تبعه فى الخلف · حالة فوضى · شخص آخر من كتبة الكلمة الجوفاء أو الحرف المنكسر · أغلب الحروف منكسرة · أو الممارسات الادبية الخاوية · بائس كبقية كل هؤلاء البؤساء · يتلحس كبقية المتلحسين اليه · همه الوصول ·· سيفاتحه بأحاديثه التى لن تكون الا مملة · سيرفض محادثته لاختلاف فى الرأى واختلاف فى الرؤية · فهو لا يرى هذا الباب الذى يضع عليه يده مثلما يراه هو · هو باب معدنى أصفر مستطيل الشكل وعلى حافته واق من مطاط اسود · ينغلق آليا بمجرد الضغط على زر فى جهاز القيادة مثلما ينفتح بمجرد الضغط على نس الزر · التقنية الحديثة واستغلال كل وسائل الطاقة · حتى الهواء استعمل لمثل هذه الاشياء · قاطع التذكر يلح ويطلب من الجميع أن يتقدموا · أن يركب بعضهم البعض الآخر · يقف بعيدا عنه · ثم يقترب منه· يسأله وهو يخض فى كه حنة من نقود نحاسية :
يسأله وهو يخض فى كفه حفنة من نقود نحاسية :

ـ قداش التسكره ؟

ـ أ ربعين ·

ـ أربعون أربعون · أربعون ماذا ؟! أربعون شيطانا أم أربعون عفريتا أم أربعون حمارا أم أربعون قردا أم أربعون سارقا أم أربعون ··· ما لهؤلاء القوم قد فقدوا معنى الدقة والضبط ؟ ولكنه كان يسأل هذا السؤال فى كل

مرة يركب فيها الحافلة ، وكان فى كل مرة ينتظر نفس الجواب • رغم أنه لا يهتم كثيرا ولا بثمن التذكرة الهزيل الذى لا يتناسب وما تستهلكه «العجوز» من وقود • وكان يدفع آخر الامر قطعة نقدية من فئة المائة مليم نيرجع اليه ثلاث قطع من فئة العشرين مليما • آه • انه سريع النسيان • بل هناك خرم فى الذاكرة • مشكلة قديمة • الواقع أنه لا ينسى الا الاشياء التى يود نسيانها • وها هو يود صادقا أن ينسى ما حصل من جدال بينه وبين ذاك التائه • وهما هو قد نسى ثمن التذكرة :

«أنسيت أم تناسيت» ؟

هو مضطر للسؤال عن ثمن التذكرة مرة أخرى • فما صلوحية هذا الحيوان الجاثم على رأسه :

ـ قداش التسكره ؟

ـ أربعين •

آه أربعين •••

«بروست» انسان مريض يقول : ان على الفنان ان يبحث عن حقيقة غير الحقيقة التى يكشفها الواقع • صورة فنية يكتشفها الانسان من خلال حالة نفسية تشبه الذكرى مثلا • كأن يخض الانسان فى يده حفنة نقود فيساعده هذا على استحضار أشلاء هذه الذكرى فيهتز «بروست» لاعنا هذا التعفن المحاصل فى المجتمعات المتخلفة التى تقطع حبل تفكيره وتمنعه من متابعة سحاب كثيف من دخان رقيق يحجب عنه رؤية لافتة «ممنوع التدخين» فيحس بأنفاسه تختنق • يرن جرس صغير • ينغلق الباب فيجثم عليه رجل عملاق• لا يختلف فى شىء عن العم «ارنيست» لحية دائرة ووجه مستدير ينضح حياة فيهتز «كافكا» مطالبا أن تفتح النوافذ • يقول «كافكا» افتح افتح • أكان يرعى معه البقر حتى يطلب منه فتح النافذة بهذه الطريقة ؟ شىء من الاحترام من فضلك • لقد قرأه رغم أنفه وأنف خزعبلاته المألوفة • هو ـ مثلا ـ لا يمكنه بحال ان يوصى بحرق دفاتره • بل هو يسعى ان يضيف لها بعض دفاتر غيره ممن هزهم الندم على دخول هذا الباب • وهو يسأله للمرة الالف عن الاثر الادبى الوحيد الذى أمكنه اتمامه ؟ مثل هذا الحبل وضعه أحد عباقرتنا

من الاموات فى عنق أحد عباقرتنا من الاحياء لما أوصى له بجذاذانه طالبا منه أن يؤلف له كتابا · ما هذا ؟ هو يطلب بكتب الغير ستنسب اليه · بمعنى أوضح يحاول أن يرث السلف · شيء طبيعي فى سنة الحياة · وغيره يوصى غيره أن يؤلف له كتابا بعد موته · ما هذا ؟ أهو تلقيح بقر أم ماذا ؟ لنقل انها الصفاقة · مهلك · انها السرقة · وسارق الادب كسارق الذهب · أين ذاتية الفن ؟ هو أولى من يجيب عن هذا السؤال ولكنه ليس مؤهلا لذلك ··

يخض فى يده القطع النقدية فيهتز العدم فى كفه · ألم يقل عالم خطير ان الصفر بطبيعته البسيطة يكون أهم الاعداد وأكملها · ما ذكره بالصفر ؟ وهذا الوجه المسلول ما يفتأ يلتهمه بنظراته المتعبة · العينان غائرتان · الوجنتان ناتئتان · الفم بارز · الشعر أسود فاحم · ينزل رأسه ثقيل ليستند الى كتفه · ابتعد · ما تعود هذه العواطف النبيلة · لا رحمة ولا شفقة · بدأ ترجمة روايته «القصر» ثم عدل عن ذلك · بدأ ترجمة روايته القضية ثم عدل عن ذلك · بدأ ترجمة روايته أمريكا ثم عدل عن ذلك · ولما أعد جزءا من قصته المسخ فوجيء بها تباع معربة فى الاسواق · أمر عجيب · ألم يكتب مرة فى احدى افتتاحياته حول الترجمة والمترجمين فأبدى عجبه من صحة رقعة أولائك الذين يترجمون آثارا عن لغات أخرى بدل اللغة الاصلية التى كتبت بها تلك الآثار · وها هو قد ترجم قصة لهذا الكاتب عن اللغة الفرنسية والحال أن هذه القصة كتبت باللغة الالمانية أصلا ·

ـ تقدموا · تقدموا ·

يخض فى يده حفنة من نقود نحاسية · يسأل قاطع التذاكر :

ـ قداش التسكره ؟

ـ أربعين ·

يحدق مليا فى كفه متفحصا القطع النقدية · ثم يختار واحدة من فئة المائة مليم ليمدها اليه مشيحا عنه بوجهه · تلتقى نظراته بنظراتها · الادبية الكبيرة تلتهمه بنظراتها الحافية ، بوجهها الطويل وجه الحصان · تبتسم اليه · يشير الى قاطع التذاكر أن يقتطع تذكرتين بدل الواحدة · يشير اليها أن تتبعه · المرأة همها الشهرة · وعلى صفحات الجريدة يخصص لها مكانا بارزا لطلعتها الميمونة · تقترب منه باسمة :

ـ كان ذاك المنحط عنيفا معك • لكم آلمتنى وقاحته فبكيت •

ـ المهم • الى أين ؟

ـ زوجى فى انتظارى على المحطة •

ـ سننزل فى محطة أخرى قبل نهاية المطاف • سنتعشى معا ونسهر معا • سهرة عائلية •

تطل المرأة برأسها متطلعة وجهه فيشير اليها قائلا :

«انظرى «مسيو بروست» وهو يبحث عن الزمن الضائع» •

فتقول المرأة غاضبة :

«كان عليه أن يبحث عن «ألبيرتين» الشاردة» •

يقول «مسيو بروست» ضعيفا هزيلا :

«لو بحثت عن «ألبيرتين» لبحثت عن الحب • وأنا انسان عاجز» •

يقول الاديب السا... الكبير

«ما قيمة الزمن ان انعدم فيه الحب • ابحث عن «ألبيرتين» كما قالت زميلتنا وستجد نفسك صحيحا معافى» •

ترتج الحافلة يتساقط الركاب على بعضهم بعضا فيجد الاديب الكبير الاديبة الكبيرة فى حضنه • فيقول له «بروست» هازئا :

«اولى بك أنت منى بنصيحتك • لو بحثت عن الحب • لو بحثت عن الحب فى عتمة حقدك الاعمى لكنت اكثر اشرافا» •

محمد الهادى بن صالح

خمسينيــة أبــى القــاسم الشــابى

بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة الشاعر الملهم « **أبو القاسم الشـابى** » (1934 ـ 1984) **رأينا إثبات فصل من « الخيال الشعرى عند العرب » الذى تحدث فيه الشابى عن صلة ذلك الخيال بالقصة العربية ، كما أثبتنا له قصة بعنوان « سعيـد المجـذوب » صدرت ضمن الأعمال الكاملة للشابى عن الدار التونسية للنشر . وهى لا تبعد عن القصة التى نشرناها له بالعدد واحـد وثـلاثين من مجلة « قصص » بعنوان « روح ثائرة » التى نشرت له فى مجلة « العـالم الأدبى » سنة 1932 .**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخيـــال الشعـــرى والقصـــة

قد لا يعجز الباحث فى الاداب العربية ان يجد شيئا من القصص الرائـع الفخم الجميل وان يجد فى ذلك القصص خيالا عذبا مشرقا بالروح والحياة ، هذا لا سبيل لانكاره فيما اظن ، وهل ينكر هذا وفى العربية مثل ابن ابى ربيعة شاعر الشبيبة الغزلة والجمال المدل ذلك الشاعر الذى قصر شعره على الحب والجمال فكان جميلا كالحب حبيبا كالجمال ، وكان اكثره قصصيا رائعا فيه من الفن والعذوبة ما لا تستطيع وانت تقرؤه الا ان تعجب به وتسيغه وفيها مثل امرىء القيس ذلك الشاعر الشقى بشعره الضحاك الفـروح ، التعيـس بنفسه الغريدة الشاعرة ، ذلك الشاعر التعيس الذى استهتر بالحب فكان له لذة سائغة فى فجر شبابه وغصة مرة فى مساء الحياة !

وفيها غير هذين ممن لم يتوفروا على القصص توفرهما ولكنهم ضربوا فيه بسهم غير يسير .

كل هذا اؤمن به واقره ولا اريد ان اعرض له بنقص او تحوير ولكن الذى اريده بعد هو اننا لو بحثنا فى ما ابقاه لنا العرب من تراث ادبى جليل فهل نعثر فيه على شىء من القصص الحق الذى يجدر ان يسمى قصصا ؟

هل نجد هذا القصص الجميل الذى يراد منه الى ذلك فهم الحياة الانسانية بما اشتملت عليه من خير وشر ومن حسن وقبح ومن لذة والم .

هل نجد هذا القصص الذى يقصد منه سبر جراح النفس البشرية الدامية، ورسم تلك الدماء الدفاقة التى تتدفع آنا بعنف وقوة وحينا على رود واناة ؟

نجد هذا النوع القوى الذى يعمد الى قلب ابن آدم ، الى يم الحياة ..! ليصور للبشرية ما فيه من الآمال المجنحة باجنحة النجوم خفاقة مترنمة ، وليريها طفل السماء الجميل ... الذى يدعونه (الحب) واقفا على ضفة اليم ينفخ نايه مستفزا بنات الاعماق الحالمة ... وليعطيها صورة شيقة من تلك

العواطف العتية الجامحة التى ترغى وتزبد وتصطفق ، وتدوى بكل مـا فى الحياة من قوة وما فى الحياة من صوت ثم تطغى فتأكل كل شىء وتقضى على كل كائن ٠٠ فاذا الكل خراب ، واذا الكل قبضة من ضباب ، واذا اليم وحده يعج عجيج العاصفة ويدوى دوى الرعود ، ثم يقر ويسكن فاذا به نطفة بائسة تترجح فى راحة الموت ٠٠!؟

واخيرا ، هل نجد فى الادب العربى شيئا من هذا القصص الذى يتصـل بالخيال الشعرى ادق اتصال لانه يتفهم الحياة بما اشتملت عليه ؟٠٠

غير انى ارى من الخير ان ارجىء الاجابة عن هذا السؤال الى ما بعد الاجابة عن سؤالين آخرين ٠ اولهما : هل القصص العربى مستقل بنفسه عن غيره من فنون الادب ؟ ثانيهما : هل كان القصص العربى من ذلك النوع الذى ينقد ويمحص ، ويسبر ويحلل ؟ اما السؤال الاول فالجواب عنه هو ان القصص اما ان نبحث عنه فى النثر واما ان نبحث عنه فى الشعر ، فان بحثنا عنه فى الشعر ، فالجواب انه لم يستقل بنفسه استقلالا يؤهله لمنزلة القصص الحقيقى او ما يقاربه الا فى شعر ابن ابى ربيعة ، ففى شعر هذا الشاعر وحده قارب القصص ان يستكمل قواه ولو اتاح الله للشعر بعد ابن ابى ربيعة من سار على قدمه وطبع على غراره لكنا نرى فى الادب العربى شعرا قصصيا جميـلا جديرا بهذا الاسم ٠

فان الباحث فى الادب العربى ليستطيع ان يجد لغير ابن ابى ربيعة مـن شعراء العربية شيئا من القصص الجميل ولكنه غير مستقل بنفسه ٠ فقـد يجد للمنخل اليشكرى هذا القصص الصغير الجميل الذى يصف موقفا من مواقف الحياة ٠

ولـقـــد دخلـــت عـلى الفتـ ـاة الخـدر فـى اليـوم المطيـر
الكـــاعـــب الحســنـــاء تـــر فـل فى الدمقـس وفى الحـريـر
فـدفـعـتهـــا ، فـتـدافـعـــت مـشـى القـطـــاة الى الغـديـــر
ولـثـمـتهـــا فـتـنـفـســت كـتـنـفـس الظـبـى الغـريـــر
ودنـــت فقـالـت : (يـا منـخـ ـل ! ما بجسمك مـن حـرور ؟)
مـا شـف جسـمـى غـيـر حبـ ـك فاهـــدئـى عنـى وسـيـرى

ولكنه لم يكن مستقلا بنفسه ولا مسوقا بذاته لانه من قصيد للشاعر اراد ان يفتخر فيه فتنقل فى معانيه تنقل الطائر المدل ، وقد يجد مثل هذا عند امرىء القيس فى معلقته حين يقول :

وبيضة خدر ، لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهوبها ، غير معجل
تجاوزت حراسا ، وأهوال معشر ... على حراصا ، لو يسرون مقتلى
اذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت ، وقد نضت لنوم ثيابها ... لدى الستر ، الالبسة المتفضل
فقالت ، (يمين الله ! مالك حيلة ... وما ان ارى عنك الغواية تنجلى)
خرجت بها ، تمشى ، تجر وراءنا ... ـ على اثرينا ـ ذيل مرط مرجل(I)
فلما اجزنا ساحة الحى ، وانتحى ... بنا بطن حقف، ذى قفاف عقنقل(2)
هصرت بفودى رأسها ، فتمايلت ... على، هضيم الكشح، ريا المخلخل(3)

ولكنه كالاول لا يزيد عن انه بعض قصيدة تصرف فيها قائلها تصرفا كبيرا .

وقد يجد مثل هذا فى (ايامه) وفى (احار ابن عمرو !) وفى (الاعم صباحا) ويجد مثله عند النابغة فى قصيدته (يا دار مية) وفى معلقته بل ويجد مثل هذا عند اكثر شعراء العربية ولكنه لا يجده مستقلا بنفسه يستغرق القصيدة كلها لا يدع فيها مجالا لغيره الا عند ابن ابى ربيعة وانى لاكتفى بقصيدة واحدة من شعره القصصى الكثير تبين لكم طريقته الشعرية فى سرد القصص، تلك الطريقة الساحرة المغرية التى استهوت عذارى مكة وشبانها حتى حرم الكبراء رواية شعره على فتيانهم ، والتى استهوت نفس جميل فقال : هيهات يا ابا الخطاب لا اقول والله مثل هذا سجيس الليالى ، والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد ، على ما ذكره صاحب الاغانى ، اما هاته القصيدة فهى هذه :

(I) مرط ، كساء من حرير . مرجل ،، مرسوم به صور الرجال .
(2) الحقف ، الرمل المستطيل المشرف . القفاف ، المنعقدات من الرمل . عقنقل ، بعضه فوق بعض .
(3) هصرت ، جذبت ، بفودى ، بحنبى الرأس ، هضيم ، لطيف .

راح صحبى، ولم أحى النوارا وقليل لو عرجوا أن تزارا
ثم اما يسرون من آخر الليل واما يعجلون ابتكارا
ولقد قلت حضرة البين ، اذ جد رحيل ، وخفت ان أستطارا
لخليل يهوى هوانا مؤات كان لى عند مثلها نظارا :
(يا خليل اربعن على ـ وعينا ى من الحزن تهملان ابتدارا (4)
(ها هنا فاحبس البعيرين ! واحذر رائدات العيون ان تستنارا)
(اننى زائر قريبة ٠ قد يعلـ ـم ربى ان لا اطيق اصطبارا)
قال : (فافعل ، لا يمنعنك مكانى من حديث تقضى به الاوطارا)
(والتمس ناصحا ، قريبا من الور د يجس الحديث والاخبارا (5)
فبعثنا مجربا ، ساكن الـ ـريح خفيفا معاودا ، بيطارا
فاتاها ، فقال : (ميعاد السر ح اذا الليل سدل الاستارا)
فكمينا ، حتى اذا فقد الصو ت دجا المظلم البهيم ، فحارا (6)
قلت لما بدت لصحبى : (انى ارتجى عندها لدينى يسارا)
ثم اقبلت رافع الذيل ، أخفى الو طء ، أخشى العيون والنظارا
فالتقينا ، فرحبت حين سلـ ـمت، وكفت دمعا من العين مارا (7)
ثم قالت عند العتاب : (رأينا فيك عنا تجلدا وازورارا)
قلت: (كلا! لاه ابن عمك! بل خفـ ـنا أمورا ، كنا بها أغمارا (8)
(فجعلنا الصدود ـ لما خشينا قالة الناس ـ بيننا أستارا)

---

(4) اربعن ، اعظف ٠ والنون للتوكيد ٠

(5) الورد ، محل الورود ٠ وذهاب العشاق الى موارد الماء لتتبع النسوان او بعث سفرائهم اليهن لتلتف الاخبار وضرب اواعيد عادة عربية لم تزل حتى الآن متبعة فى البادية ٠

(6) كمينا ، كمنا ولستترنا ٠ حار ، رجع ٠

(7) مار ٠ سال وجرى ٠

(8) لاه ٠ بكسر الهاء ٠ لله در ٠ أعمار ، جمع غمر وهو من لم يجرب الامور ٠

(وركبنا حالا لنكذب عنا قول من كان بالبنان أشارا)
والليالى اذا نأيت طوال وأراها اذا دنوت قصارا
فعرفت القبول منها لعذرى اذ رأتنى منها أريد اعتذارا
ثم مالت ، وسامحت بعد منع وأرتنى كفا ، تزين السوارا
فتناولتها ، فمالت كغصن حركته ريح عليه فحارا (9)
وأذاقت بعد العلاج لذيذا كجنى النحل شاب صرفا عقارا
ثم كانت دون اللحاف لمشغو ف ، معنى ، بها مشوق ، شعارا
واشتكت شدة الازار من البهر وألقت عنها لدى الخمارا (10)
حبذا رجعها اليها يديها فى يدى درعها تحل الازارا ..
ثم قالت ، وبان ضوء من الصب ح ، منير ، للناظرين ، أنارا :
(يا ابن عمى ! فدتك نفسى ! انى اتقى كاشحا اذا قال جارا)

فانتم ترون فى هذه القصيدة نوعا طريفا من القصص لا عهد للادب العربى بمثله قبل ابن ابى ربيعة ، لا عند امرىء القيس ولا عند النابغة ولا عند الاعشى ولا عند غير هؤلاء ممن تقدمه من الشعراء فابن ابى ربيعة جدير أن يسمى ابا الشعر القصصى لانه هو الباذر الاول لبذرة هذا الفن ولو تعهدها من بعده من الشعراء لا نشأت نشأ حسنا تعم فروعه جميع نواحى الحياة بعد أن كان قاصرا على أحاديث الحب ونجوى القلوب ، ولكن هذا القصص الشعرى قد استهل بحياته وانقضى بموته ولم يبعث على يد شاعر بعده من جديد .

وتلك حياة القصص فى الشعر العربى وهى كما ترون حياة موجزة قصيرة كاعمار الورود ... وأما فى النثر العربى فقد ظفر القصص الى حدما بما لم يظفر به فى الشعر من الاستقلال والحياة . وذلك ان هذا الفن لم يعرفه النثر الجاهلى أصلا لندرة النثر فى الجاهلية ، ولانه كان قاصرا على الخطب والمحادثات ولم يدون منه الا الشىء اليسير ، ولم يعرفه النثر العربى بعد ذلك الا فى اواخر العصر الاموى عندما ترجمت قصص «الف ليلة وليلة» فقد الفت اذذاك بعض قصص اخرى تمثل شيئا من الحياة العربية فى تلك العهود واضيفت اليها ، ولكن كتاب «الف ليلة وليلة» لم يبعث شيئا من الحياة القصصية فى النثر العربى البليغ فظل على حاله الاولى الى ان كان فجر

---

(9) حار ، رجع اليه .
(10) البهر ، ضيق النفس من الامتلاء او الاعياء .

القرن العباسى واذ ذاك ترجم ابن المقفع عن الفارسية بضع كتب قصصية تضرب الى الحكمة والمثل لا نعرف منها الا كتاب «كليلة ودمنة» فكانت هاته الكتب فتحا جديدا فى النثر العربى بعثت فيه روحا قصصية لم تكن فيه من قبل · ونشطت أقلام بعض الكتاب الى العمل فى هذا السبيل ، فالف ابن فارس استاذ بديع الزمان مقامات لم يحدثنا التاريخ بشىء منها . ثم ألف من بعده بديع الزمان مقاماته . ثم ألف الحريرى مقاماته المعروفة . ومن لدن الحريرى انحط هذا الفن انحطاطا كبيرا . وأصبحت المقامة انما هى الفاظ مرصوفة وكلمات مرصوصة يتباهى بتنضيدها والمخالفة بين الوانها كما يتباهى الصبيان برصف الحجارة اللامعة ··· وفى تلك الفترة التى كانت بين البديع والحريرى ألف المعرى رسالة الغفران وهى من خير ما ألف فى النثر القصصى خيالا ومغزى ففى رسالة الغفران يجد الباحث فى النثر القصصى ما لا يجده فى غيرها من الصور الشعرية الرائعة والجمال الفنى البديع ، ولا أعد من النثر القصصى تلك الكتب التى من طراز «ألف ليلة وليلة» لان مثل هاته الكتب لاحظ لها من الادب العربى البليغ الذى لا اتحدث عن غيره ·

وأما السؤال الثانى وهو : هل كان القصص العربى من ذلك النوع الذى ينقد ويمحص ويسبر ويحلل ؛ فالجواب عنه : ان القصص العربى لم يكن من هذا النوع وانما كان أحد أنواع ثلاثة : اما قصص يقصد به اللذة والامتاع وهو ما نجده فى شعر ابن ابى ربيعة وامثاله من تلك الاحاديث الغرامية الغزلة واما قصص يراد منه الحكمة وضرب المثل وهو هذا القصص الذى يمثله كتاب «كليلة ودمنة» وما سار على نهجه · واما قصص يقصد للنكتة الادبية والنادرة اللغوية وهو فن المقامات الذى يحمل لواءه البديع واستاذه ، والحريرى ومن حذا حذوه ·

وبعد فهل كان للقصص العربى نصيب من الخيال الشعرى الذى نبحث عنه ؟ اقول : لا ، لان الخيال الشعرى لا يضطر اليه الا من أراد خوض ظلمات الحياة وانفاقها ، واستطلاع ما فى خفايا النفوس من صور ورسوم ، لان الخيال الشعرى هو فانوس الحياة السحرى الذى لا تسلك مسالكها بدونه ، والقصص العربى لم يجشم نفسه ركوب هذه السبيل الغامضة المتعرجة ، بل اتبع تلك الطريق المنبسطة الواضحة التى لا تؤدى الى اللجة ولا الهاوية ولكنها تؤدى الى صحراء مدحوة يأخذ الطرف ما فيها لاول نظرة ··· تلك الطريق اللاحبة العارية التى سارت عليها أساطير العرب وآدابهم ·

ابو القاسم الشابى

سعيـــد المجـــذوب

ما أغرب دخائل النفوس ! وأغرب خفايا السرائر !

لقد صاحبت صديقى سعيدا منذ كنا صبيين نرفرف فى فضـاء الطفـولة بأجنحة الملائكة ، عرفته منذ كنا نواتين انبثقتا فى حقول الطهر من أعماق السكينة ٠

وعرفته فى عهد الشباب ، تلك الروح الهادئة كالاوديـة الصـامتـة ٠٠ كالكهوف ٠٠٠

عرفته ، تلك الروح السابحة فى عالم آخر غير العالم الذى تسبح فيه أرواحنا ..

عرفته فى الجمود والحيرة ، وفى الوحدة والانفراد ٠

وقد كنت وصحبى ننظره معجبين بأطواره ، مستغربين حياته المحفـوفـة بالغرابة والخفاء ٠

فلا نراه الا مارا بأعماق الاودية البعيدة الخالية ، أو على قمم الجبال المتسامية بجلال نحو العلاء ، محدقا بنظرة هادئة خاملة طويلة كأنها هابطة من أعماق السماء ٠ فكنا نناديه باسمه فيتماهل فى مشيته ، ثم يلتفت الينا ملقيا علينا تلك النظرة العميقة ، ثم يذهب فى سبيله لا يلوى على شىء بعد أن يشفع نظرته تلك بابتسامة فاترة ، حزينة ، حائرة ، بها كل مظاهر الاكتئاب ٠

لقد كانت معرفتى له حائرة باحثة عن الدافع الذى يحدو به الى نبذ الحياة الاجتماعية ، ويصرفه الى حيث الوحدة الموحشة فى رؤوس الجبال ٠

لقد كانت معرفتى له ملتبسة سابحة فى فضاء من ضباب ٠ أما الآن فقد تقشع الضباب وأبصرت أجفان المعرفة سماء الحياة ٠٠٠

نعم قد عرفت صديقى سعيدا ، ذلك الفتى ، غريب المزايا ، مجهول الامانى والاحلام ·· عرفته ، وعرفت أن وراء المظاهر تختفى حقائق الاشياء ، وما سطحيات الامور الا اردية كثيفة تخفى ملامح الحقيقة ·· وعرفت أن من تغره الظواهر لن يفهم أسرار الحياة ، ولن يدرك كنه الوجود ·

★ ★ ★

بالامس وقفت على وجود آخر لم تحلم به هوامسى من قبل ·

حدث ذلك لما كنت سائرا على شاطىء البحر الجائش أسمع أنشودة الحماس تتدفق من أفواه أمواجه ، شاعرا بلذة شاذة متشحة بالاحلام ، معنعنة بالابتسام ، تداعبها غدائر النسيم المتوجة بأشعة الاصيل الساحرة ، أنستنى كيانى وما يحيط به من العوالم ، وتركتنى سابحا فى ملكوت الجمال والخيال، فاستسلمت لتلك الغيبوبة العذبة التى تطل علينا من بين آلام الحياة كما يطل البدر على البرية الحالكة ، ويبث ابتسامته الراقصة ؛

لكن تلك الغيبوبة لم تطل كثيرا اذ شعرت بيد توضع على كتفى بلطف فالتفت لمصدرها فاذا صديقى سعيد يبتسم · فحييته بحرارة وقلت : «ما أعظم سرورى بلقياك أيها الصديق» فرأيته يرميني بتلك النظرة الغريبة ، ثم انحجبت تلك النظرة وراء ابتسامة لا كتلك الابتسامة القديمة ، ولكنها ابتسامة صديق ودود تتدفق محبة وولاء وقال لى : «كيف أنت أيها الصديق ؟ انني لم أرك منذ حين والآن تعال » ·

ثم سار صامتا فتبعته فصعد بى الى رابية قد تبعثرت حواليها جدران سميكة عتيقة متناثرة على رمال الشاطىء كأشباح الدهور مصغية الى دمدمة البحر بمسامع جامدة ، تالية للايام ما همسته الليالى · وهناك على تلك الرابية الحجرية الرابضة على صدر رمال الشاطىء جلس وجلست ، فاستسلم لسكوته العميق ناسيا وجودى معه ، وناظرا الى البحر تلك النظرة التى كان يسددها نحو السماء ، فقلت قاطعا سلك السكوت :

«انك امام البحر يا سعيد ! ولست أمام السماء فعلام هاته النظرة اذن »؟

فأجابنى مستاء شاخصا بالامواج :

«البحر روح حرة ترتل أغانى السماء ، ولا تصرف أسماعها لخرافات الارواح المكبلة بأحلام الجسد» ٠

فأجابنى وقد انبعث من عينيه نور عذب لطيف :

«اذا حررت الروح صارت فكرا نافذا يرفرف محدقا بأعماق الوجود ، فاهما أسرار الحياة» ٠

ثم سكت وقد خفتت تلك النظرة العذبة وتبرقعت ملامحه بكآبة مؤلمة وقال :

«أنتم تضحكون منى ساخرين ، وأنا أبكى لاجلكم متألما ، ولكنى سأدعكم تضحكون حتى تخفت أصداؤكم فى أودية الموت ، وسأظل باكيا حتى يجفف مدمعى تراب القبر» ٠

فقلت معارضا وأنفاسى تتراكض وكلماتى تتدفق متسارعة : «**كلا** ! كلا ! يا سعيد ! نحن لا نريد أن نبقى ضاحكين الى الابد ٠٠ نحن **لا نريد أن نبقى** ساخرين ، والحياة تسخر بنا ٠٠٠ نريد ان نستشف ما رواء أحزانك ٠٠٠ نريد ان نعرف مآتى وحدتك وانفرادك ٠٠ نريد ان ترينا الحقيقة التى تصعد بروحك الى مستوى لم ندركه بعد ٠٠ نريد ان ترينا الحقيقة مهما كانت مرة مؤلمة» ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فصمت قليلا ثم أغمض عينيه وجعل يقول : «ها أنا ذا ! سأتلو عليك قصتى فاستمع لى جيدا : ان روحى ستعلن لك خفاياها فتفهمها بالروح» ٠

قلت : «سأفهمك كما تريد» ٠

فقال : «لما انحدرت روحى من الابدية الى هذا العالم لتسكب فى خلايا الحبس اشعة الحياة وجدتنى وليدا يا صديقى ! كما وجدت نفست نفسك من قبل ٠ وكانت ترتسم على شفتى من حين لحين ابتسامة عذبة ساذجة كنت أحيى بها عذارى السماء الراقصات حولى ، منشدات روحى القريبة أناشيد الخلود ، المسلية ، ساكبات فى قلبى الصغير أشعة السماء المتألقة ٠

ولكن كل ذلك توارى وراء نقاب الطفولة كما تختفى الشمس وراء الشفق٠٠ توارى كل ذلك وراء نقاب الطفولة ، الذى صرف أجفانى عن التحديق فى

جمال السماء ، الى جمال الارض ، دون أن أشعر بتدفق السآمة الى نفسى ولا الشوق الى قلبى ٠

ولكن لما ارتديت رداء الشباب ، خفقت فى قلبى ذكريات بعيدة نائية ، أنارت به أشباح سرب من عذارى الفردوس راقصات حول طفل يتفجر من ثغره الابتسام ، فشعرت بالمرارة تنساب الى أعماقى جارفة اليها أحساك الالم ٠

وشعرت بأن حياتى قد انقلبت الى حياة أخرى غريبة عن هذا الوجود ٠

نعم ! قد انقلبت حياتى الضحوكة اللامعة الى حياة كئيبة مظلمة ، فى أعماقها شوق لما تكرهون ، وضجر مما تحبون ، فانتفضت أحلامى الهادئة ، واستمالت الى احلام ساخطة منكم ، ناقمة على أحلامكم المنحنية أمام الجبابرة٠٠٠ أمام الضعاف المتصاغرة ٠٠٠ أمام المظالم المتكبرة ٠٠٠ أمام العدالة ، ساخرة بنفوسكم الحقيرة المختبئة فى خصاص الكهوف المتعالية ٠

لقد كرهتكم يا أبناء شعبى ! لاننى استيقظت فرأيت الفجر يسعى متمايلا فوق التلال ساحبا ذيل ردائه ٠٠٠ ورأيت الطيور فرحة مغتبطة ٠٠٠ ورأيت الحياة يقظى ، وبين أجفانها ثمالة أحلام عذبة تهادت حول قلبها فى سكينة الظلام ، وعلى ثغرها ابتسامة فاتنة مرتسمة كطيف من أطياف السلام ، ومن عينيها الساحرتين يتفجر نور من أنوار السماء مقنعة بنقاب شفاف من سبات الليل ٠

ثم التفت اليكم فوجدتكم هجعا فى أعماق الكهوف ، تظللكم أجنحة الليل فتحجب عنكم أنوار السماء ٠٠٠ وجدتكم نائمين وأجفانكم مترعة بالظلام ، أما أقدامكم فهى مغمورة بأنوار الصباح ، هازئة بتلك القيود اللامعة التى كبلتكم بها الاجيال ، ففتن أبصاركم بريقها حتى حسبتموها حلية مقدسة ان انتزع واحد منها يده هزئتم به وقلتم : انه مجنون ٠٠٠

وأيقنت أنكم أبناء الموت ، وخليق بالموت أن يحتضن أبناءه ويرقدهم فى الظلام ٠ ثم التفت فرأيت أبناء الحياة يتراكضون بين المروج حيث الزهور ملتمعة بالاشعة العذبة ، رافعين رؤوسهم محدقين بالشمس المطلة من رواء الجبل ٠٠٠ ! اذذاك أبغضتكم لاننى أحب الحياة وأبناءها ٠٠٠ وتبرمت بكم لانكم تتبرمون بالنور وتحنون للظلام ٠

ولما أهبت بكم لكى تسكب الحياة فى قلوبكم من دمائها وتبعث فى أعماقكم القوة والشباب ، فانتفضتم لحظة ثم استسلتم للسبات · فعلمت أن الموت قد نفخ فيكم من روح الشيخوخة الباردة المستسلمة للخمول ، ثم سكت قليلا وقال ، وقد انقلبت ملامحه ، وارتسم عليها الغضب ، وارتفع صوته عن ذى قبل ، حتى اصبح قويا رنانا يتمايل صداه فيترك دويا هائلا كأصداء الخضم، «فانتفضت وأحببت السكينة ، وانصرفت عن مجتمعاتكم الفاسدة ، الى حيث استمع لالحان اكتئابى المترنمة فى مناكب الاودية ورؤوس الجبال ، حيث تنطلق أحزانى حرة كأغاريد الطيور لا تفزعها ضجاتكم ، ولا يصدها ما قد حفرتموه من مغاور وكهوف بين الجبال ، أنفرد بنفسى مصغيا لنغمة الاسى الباكية مصغيا لاصوات نفسى الكئيبة» ·

فقلت : «صف لى أحزانك عسى أن يلامس لهيبها صدأ نفسى» ·

فأجابنى : «أنا لا استطيع ذلك لانها روح عميقة كالحياة ، متسعة كالفضاء، وليست بمجسدة فى الالفاظ لان الالفاظ ضيقة جامدة · أنا لا استطيع ·!

لقد ابغضتكم يا ابناء بلادى ! لانكم تكرهون الحقيقة التى تسير فى نور الشمس عارية متجردة ، وتحبون الضلالة التى تستتر بالضباب ·

لقد ابغضتكم يا ابناء شعبى ! لانكم لستم جبابرة متمردين ولا هولا خاضعين ، ولكنكم اطفال ثرثارون تعجبون بأمجاد قد انسحقت بأقدام الزمن واندثرت فى ظلال الحياة ·

لقد احببتكم كثيرا يا ابناء بلادى حتى ملنى الحب ، وقد كرهتكم كثيرا حتى سد على الكره ارجاء قلبى ·

ثم استيقظت وفى أعماقى شوق لما تكرهون وضجر مما تحبون ·

ان امجاد الحياة فى احزان الحياة ·

وما المجد الا زهرة باسمة ما دامت مخضلة بالدموع فان جفت عنها الدموع ذوت وتهاوت الى اعماق العدم · وكثير من الناس يزرعون بذرة المجد ثم يسقونها بالدماء لكى تنمو وتنكشف عن تلك الزهرة الفاتنة ، ولكنها لا تلبث ان تتجلى عن الشوك بدل الزهر · هم يحسبون انها زهرة غريبة تغذيها الدماء، ولكننى أسألكم ! ··

استحلفكم يا ابناء الحياة بكل ما تقدسون فى هذا العالم ٠٠ أرأيتم زهرة نامية على ضفة نهر من دماء ؟ ولكننى أقول لكم : ان الزهور تغذيها دمـوع الصباح ودموع الحياة ، الا ان لغة الزهور لا تفقه الدماء ، ولكنها تفهم الدموع، الا ان شريعة الزهور لا تعرف الدماء ، ولكنها تعلم وحى الدموع ، فما الدمع الا جدول من جداول السماء ينبت زنابق المحبة الخالدة ، وزهـار المجـد الابدى ٠

أنتم تسألوننى هل تسير الحياة فى درب الزهور بأقدام ثابتة ان لم ترافقها الضجة ويعانقها الصراع وأنا أقول لكم والكون واجم : ان الحياة لا تفتقر الا الى الامل ، الى تلك الاشعة الالهية التى تنير لها سبيل المعرفة ، وتبـدد عن مسلكها دياجير الظلام ٠

وهل سمعتم منذ الازل صوتا تردده عرائس الاحلام ؟ فالدوحة الساحرة التى تختبىء فى صدر الحياة وفى قلبها صوت الحياة تنمو وتورق وتـزهـر وتترنم بصمت وتندثر أزهارها بسكون ٠

وهكذا تنقضى الايام والليالى الى ان يضمها الى صدره الرحب فى سكـون عميق ٠

وكأزهار على سطح البحيرة تترامانا أمواج الزمن الخرساء ، وتتقـاذفنـا لجات الحياة الهاجعة دون أن نصل الى الشاطىء الجميل ، أما اذا طوانا التيار وانحدر بنا الى أعماق اللجج فسندرك اذ ذاك عذوبة الساحل وسنحدق مليا بالشمس اللامعة وتتكلم الحياة فتمتلىء أعماقنا بأغانيها وتمتـلىء أجفـاننـا أجفاننا بابتساماتها ٠

أبو القاسم الشابى

ابن رشـد الحفيـد : تـأليف : حمـادى العبيـدى

نـشـر : الدار العربية للكتاب

محمد الخموسى الحناشى

رحلـــة وراء الســـراب

الوقت عشية واليوم يوم عطلة نهاية الاسبوع من أواخر شهر مارس • كنت مستلقيا على الفراش أستمع الى المذياع فى غير اهتمام ، أنقل الطرف فى شرود بين سقف الغرفة وجدرانها المتربة العارية وقد تملكنى شعور بالضيق والملل اذ سمعت طرقا على الباب • كان صديقى الحسيـن بجسمـه الممتـلىء وكرشه المنتفخة قد جلس فى استرخاء داخل سيارة بيجو 404 الى جوار شخص لا أعرفه اتخذ مجلسه خلف عجلة القيادة •

بعد تبادل التحية قال يعرفنى بالرجل :

ـ عبد الرزاق ابن خالتى وشقيق زوجتى مرشد بالتعليم الابتدائى •

ـ أهلا وسهلا •

ـ لقد اغتنمت فرصة حضوره لزيارتنا فطلبت منه تمضية بقية اليوم معنا، فما رأيك لو نذهب الى أحد النزل نمتع أنظارنا برؤية حسان أوروبا الفاتنات ونتناول ما تيسر ••؟

ـ فى الواقع لا أجد فى رغبة فى الخروج •

ـ ستذهب معنا ، ان عزلتك لن تفيدك فى شىء ، ولن تزيدك الا ضيقـا وسأما ، والساعة التى تمضى من حياتك لا تعود •

وأمام اصراره لم اجد مناصا من قبول الدعوة • وأخذت مجلسى بالمقعد الخلفى للسيارة ، واستدار الحسين ناحيتى وقال :

ـ أعرف أنك تفضل ارتياد الاماكن الهادئة ، فما قولـك لو نـذهب الى ڤراد ••؟

ـ ڤراد •• ؟

ـ نزل صحراوى منعزل بعيد عن الناس ، أنشيء حديثا لا أعتقد أنـك زرته من قبل ٠

ـ لا أذكر ٠

ـ سوف يعجبك كثيراً ٠

ـ هل هو بعيد من هنا ٠٠؟

ـ ليس كثيرا ٠

وتحركت بنا السيارة ٠ وبعد بضع دقائق من السير بالطرق المعبدة مضت تخوض بنا طريقا رملية وعرة ونحن داخلها نهتز ونتمايل كالمجـاذيب رغـم سيرها الهادىء البطيء رؤوسنا تصطدم بسقفها بين الحين والحين فى عنف وقسوة رغم تشبثنا بالمقاعد والابواب ٠ وأخيرا وصلنا ٠ يا لروعة المشهد ، كثيب ضخم يطل على مزرعة للنخيل مترامية الاطراف انتصبت بها أشجـار الدفلة صفا صفا باسقة فارعة قد انتشر سعفها الاخضـر فى الفضـاء حتى يكاد يتعانق فى رقة وجمال ٠ بين المزرعة والكثيب تفصل قناة مفتوحة من الاسمنت المسلح تدفق فيها ماء عذب زلال من البئر الجوفية الموجودة قريبا٠ دخلنا النزل فاستقبلنا صاحبه مرحبا بنا ٠

ثلاثة صفوف متلاصقة من الاكواخ المهيأة من سعف النخيل أمامها ساحة فسيحة يتوسطها حوض للاستحمام ٠ قال لنا الرجل وهو يتجول بنا فى مرافق النزل :

ـ لقد أردته أن يكون معبرا عن البيئة حتى أسرة النوم أعددناها من سعف النخيل واكتفينا باستعمال الشموع فى عملية الانارة وبالحطب فى التدفئة كما حرصنا على أن تكون أوانى الاكل من الخشب أو الفخار حسب الامكان ٠ والبناء الوحيد بالنزل ـ كما تلاحظون ـ هو الذى يضم المطبخ والمطعـم لقـد اضطررنا الى ذلك نظرا لكثرة الرياح والرمال عندنا فلا يعقل أن نقدم لنزلائنا طعاما ممزوجا بالرمال ٠

وبعد ان انهينا جولتنا واستراح بنا المقام جاء النادل ليرى طلبتاتنا ويساله الحسينى :

ـ لقد شاهدنا عددا من سيارات اللندروفر يدخل النـزل لكننا لم نـر سياحا فما معنى ذلك ٠٠؟

أجاب الشاب :

ـ لقد صعدوا الى التل لينعموا بالجلوس والسير على رماله الناعمة فى انتظار حلول موكب الغروب لالتقاط بعض الصور التذكارية للشمس وهى تختفى وراء الافق الوردى · لقد انحدرت الشمس نحو المغيب منذ حين ولا احسبهم سيتأخرون كثيرا · ولعلهم فى طريقهم الى هنا · انهم جميعا من الالمان ·

وما هى الا لحظات حتى اخذت طلائع القوم تهل على المكان فرادى وجماعات ومرت بمحاذاتى سيدة متوسطة القامة ترتدى القميص و ـ الدجين ـ قد لوحت شمس الجنوب بشرتها فبدت سمراء بعض الشىء ، كانت تحتضن مجموعة من الاوراق من تلك التى تستعمل فى الرسم · لمحت على الورقة الظاهرة منها خطوطا بالفحم للوحة لم تكتمل ، ووجدتنى دون سابق تفكير استوقف السائحة الحسناء :

ـ من فضلك ·

توقفت عن السير والتفتت ناحيتى وأشارت الى نفسها تسألنى ان كنت أعنيها ·

ـ بلى ·· أنت

تقدمت نحونا ووقفت قبالتى وبعد ان حييتها سألتها :

ـ السيدة رسامة أليس كذلك ··؟

ردت بفرنسية سليمة تخللتها لكنة ألمانية أضفت عليها نكهة محببة :

ـ تقريبا ·· هاوية ·

ـ هل تسمحين لى بالقاء نظرة سريعة على الرسوم التى معك · ؟

صوبت الى نظرة عميقة من عينيها العسليتين الساحرتين وقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة كفلق الصبح :

ـ بكل سرور ·

وأخذت تطلعنى على ـ بدايات ـ لوحاتها · هذا شيخ بدوى يرتدى الجبة والبرنس والعمامة قد جلس على الارض ممسكا بخزام بعيره الواقف بجواره وهذه عجوز مسنة بملابسها التقليدية العتيقة تغزل الصوف · وهذا طفل

يركب حمارا ، ونسوة عائدات من النبع يحملن الجرار والقرب ، وبنية ترعى الجداء · ومشاهد تمثل الغروب ·

وتسألنى الفنانة الحسناء :

ـ هل أنت رسام ··؟

قلت :

ـ لا · ولكنى أحب هذا اللون من الفنون ·

ويتدخل الحسين ليقول لها :

ـ انه يا سيدتى فنان من نوع آخر · فنان يرسم بالكلمات ·

ـ لم أفهم ··؟

ـ انه اديب ··

ـ اديب ·· اوه هذا جميل حقا ·

وتلفتت الى رفقائها الذين كانوا يقفون على مقربة منا ، شاب وسيم ، وكهل فى عنفوان رجولته وسيدة تصغره قليلا · وتقول لهم بضع كلمات باللغة الالمانية ثم تستدير نحوى وتقدم الى الشاب الذى جاء لمصافحتى قائلة :

ـ هانس زوجى ·

ثم تستدير نحو الرجل والمرأة وتقول :

ـ الهير ادغارد ·· ريبيكا ، زوجته · من أصدقائنا ·

ويتقدمان لتحيتى ·

ويجىء الدليل ويطلب منهم الالتحاق ببقية القوم فيحيوننا ويمضون معه ·

ويقول الحسين معقبا :

ـ لم أكن أعرف انك على هذه الدرجة من الجرأة ·

ـ ماذا تعنى ··؟

ـ ما كنت اتصور انك ممن يجرون خلف النساء ·

ـ وهل اقتنعت بذلك الآن ··؟

ـ الى حد ما ·

ـ اتق الله يا رجل ٠ أنت تعلم أن الجنس هو آخر ما أفكر فيه ٠
ـ فبماذا تفسر تصرفك مع السائحة الجميلة منذ حين اذن ٠٠؟
ـ كان مجرد فضول برىء لا غير ٠٠
وهتف وقد اشرأب بعنقه متطلعا خلفى :
ـ حلال عليك يا عم ، ها هى ذى قادمة نحونا ٠
ويسود الصمت ٠

تقدمت منى وانحنت على حتى كاد شعرها يلامس وجهى وطلبت منى فى رقة ونعومة ان أسمح لها برسم صورة لى ٠ كانت مفاجأة لى ، ولم أحر جوابا واعتقدت انى بصمتى أرفض طلبها فمضت تترجانى قائلة :

ـ لن اخذ من وقتك سوى بضع دقائع لا غير ، ارجوك لا تمانع ٠ لقد اخذ الظلام ينتشر فى الفضاء وبعد حين سوف تصبح العملية مستحيلة ٠

قلت :

ـ لا بأس ٠٠ ويسرنى أن تفعلى ٠

ويشرق وجهها بابتسامة عريضة وتسرع لاحضار مقعد وهى تقول :

ـ شكرا ٠٠٠ شكرا ٠٠

جلست فى مواجهتى ٠ وطلبت منى ان اركز نظرى عليها وان احاول البقاء فى وضع ثابت قدر الامكان ٠ وشرعت تمرر القلم على الورق فى خفة ومهارة وكلما التقت نظراتى بنظراتها ابتسمت لى فى رقة ، ومن حين لآخر كانت تلفت نظرى الى وجوب المحافظة على هيئة جلستى كلما رأت منى انصرافا عنها الى صديقى الحسين الذى كان يشاغلنى بالحديث محاولا اثارتى واضحاكى ٠

كانت فى الخامسة والعشرين فى عمرها او دون ذلك بقليل ٠ ليست بالنحيفة ولا بالممتلئة ، شعرها ناعم فى لون خيوط سنابل الذرة عند اكتمال نضجها ، عيناها عسليتان واسعتان ، شفتاها كحبتين من الكرز ، أنفها مرفوع الارنبة قليلا يوحى بالنبل والكبرياء ، جيدها طويل ، صدرها بارز كصدر صبية بدأت أنوثتها تتفتق ٠ كان جمالها من النوع الهادىء الذى يشد

النظر اليه للوهلة الاولى · ويشط بى الخيال بعيدا · ويطرق صوتها الدافىء سمعى فيوقظنى من احلامى الوردية ويعود بى الى دنيا الواقع :

ـ لقد اكتملت الصورة

وبعد ان وضعت عليها تاريخ اليوم والشهر والسنة امهرتها بتوقيعها ثم كتبت على ظهرها اسمها وعنوانها · وقدمتها الى قائلة فى ابتسام :

ـ ارجو ان تفوز باعجابك ·· لقد كان الوقت متأخرا ·

ـ شكرا جزيلا على آية حال ·

ـ أنا التى اشكرك ·

وقرأت على ظهر الصورة :

« يوتا » ·

ـ اسم جميل وموسيقى ·

ابتسمت ولم تعقب بشىء ، وحييتنا وانصرفت لتعود بعد قليل حاملة شمعة اوقدتها ووضعتها على المائدة أمامنا ثم عادت من حيث اتت · وان هى الا لحظات حتى رجعت من جديد ، لم تكن وحدها هذه المرة فقد كان يرافقها السيد ادغارد · جاءا يطلبان منى الانتقال للجلوس معهم بعض الوقت بعد أن استأذنا من زميلى فى ذلك ·

ومضيت معهما · كان الجميع يجلسون بساحة النزل أمام النيران فى شكل مجموعات صغيرة يضجون بالحديث واصداء ضحكاتهم العالية تتردد فى فضاء ليل الصحراء الساكن العريض · قالت لى يوتا بعد ان اخذت مكانها الى جانبى انها من مدينة فيزبادن وبها تقيم مع زوجها تعمل بمخبر لاحد الاطباء، تهوى الرسم وكل أملها ان تلتحق بمعهد الفنون الجميلة ذات يوم · أم لطفلة فى الثالثة فى عمرها وسألتنى كثيرا · سألتنى عن نفسى ، عن طموحاتى وأحلامى ونشاطاتى الادبية · وعن بلدى ·

وينحنى على السيد ادغارد ليهمس فى أذنى قائلا :

ـ ألم تلاحظ شدة اهتمامها واعجابها بك ··؟

والسيد ارغارد من أصل فرنسى يقيم بمدينة هنبورغ يفيض نشاطا وحيوية ومرحا · كان يبدو وهو يتكلم كشاب فى العشرين ·

وتحدثنا طويلا فى الادب والفن والسياسة وفى اشياء كثيرة ٠

وكانت يوتا والسيد ادغارد وزوجته يقومون بترجمة بعض ما كان يدور بيننا من حديث الى هانس وبنقل ردوده وملاحظاته الى ٠

دعتنى يوتا لتناول الغداء معهم يوم الاحد بالكازنو بمدينتى فوعدتها بالحضور ٠ ورجتنى ان اسلمها عنوانى واحدى صورى لترسم لى عنها لوحة ترسل بها الى وبحثت فى محفظتى فعثرت بها على صورة اخذت لى حديثا اعطيتها لها ٠

وجاء الحسين يدعونى فاستأذنتهم وانصرفت ٠ وينصرم الاسبوع وأعود الى المدينة ، ويحل الموعد أذهب للقاء يوتا وبقية الجماعة ٠ وجلسنا نتناول طعامنا فى جو لطيف أضفى عليه السيد ادغارد من روحه المرحة ظلالا من البهجة والصفاء ٠

كانت يوتا متجهة الى بكليتها الامر الذى جعلتى اشعر بالحرج مما دفعنى لاستراق النظر الى زوجها بين لحظة واخرى للتعرف على رد فعله فكنت اجده منشغلا عنا بالحديث مع السيد ادغار وزوجته ٠

وبعد أن فرغنا من الاكل اقترحت يوتا ان نتناول القهوة فى الهواء الطلق بين احضان الشمس ٠

ويحين موعد رحيلهم الى جزيرة جربة التى سيمتطون الطائرة منها الى وطنهم ٠ وأودعهم راجيا أن تتاح لى الفرصة لزيارة بلدهم العظيم فى يوم من الايام ٠ ومرت الايام والاسابيع وانتظرت ان يحمل البريد الى ذات يوم اللوحة التى وعدت يوتا برسمها لى لكن دون جدوى ٠ وانقضت سنة ، وذات مساء بينما كنت أسهر وبعض القوم بنزل المرحلة بواحة دوز اذا بجماعة من السياح الالمان يحلون بالمكان يتقدهم دليل من ابناء مدينتى ما ان لمحنى حتى جاء لتحيتى ثم انصرف على ان يعود للسمر معنا بعد ان يطمئن على ـ الفروب ـ وجاء بعد هنيهة ٠ ودار بيننا حوار طويل حول السياحة ومشاكلها وانعكاساتها السلبية على مجتمعنا العربى المسلم ٠ وقصصت عليه حكايتى مع يوتا فأكد لى بأن أمرا خطيرا قد حال بينها وبين ارسال الصورة والكتابة الى ٠ وسألنى ان كنت احمل عنوانها معى فبحثت عنه فى مفكرتى الصغيرة التى نادرا ما كنت احملها معى حتى عثرت عليه ٠

فنهض ومضى الى غرفة الاستقبال واحضر بطاقة بريدية وجلس الى جوارى وهو يقول :

ـ سنكتب اليها ، وسيصلك منها الرد قريبا · كن واثقا من ذلك ·

قلت :

ـ لنجرب فلن نخسر شيئا على أية حال ·

وعندما ذهبت الى المدينة فى نهاية الاسبوع وجدت رسالة منها فى انتظارى فتحتها فى لهفة مشتاق لكن سرعان ما اصبت بخيبة أمل فقد كانت مكتوبة بالالمانية ماذا على ان افعل ·؟ وبالسؤال وجدت من يدلنى على شخص يجيد الالمانية موظف باحدى الادارات المركزية تربطنى به علاقة طيبة · كان قد امضى بضع سنوات بالمانيا فى العمل والدراسة · ذهبت اليه بمقر عمله واخبرته بأمر الرسالة فأبدى ترحيبه بحملها معه الى البيت لتعريبها بالتعاون مع زوجته الالمانية على ان اعود اليه فى نهاية الاسبوع لاستلام الاصل والنسخة المعربة « لقد فقدت صورتى وكذلك عنوانى على اثر اشتعال النار بالسيارة لذلك لم تبعث الى بالصورة ولم تكتب الى» كانت الرسالة فى الجملة قصيرة لكنها كانت معبرة · ضمنتها اعجابها بى وتجديد طلبها الى بارسال احدى صورى اليها ورغبتها الملحة فى رؤيتها لى بالمانيا ·

قرأت الرسالة اكثر من مرة · وعادت بى الذاكرة الى اول لقاء جمع بينى وبين يوتا وآخر لقاء كان لنا ·

ترى اية قصة تعدها الاقدار لى معها ··؟

وفى المساء خلوت الى نفسى ومضيت افكر فى الصيغة التى يجب ان اضمنها ردى على رسالتها · وحملت نص الرسالة الى صديقى الموظف الذى وعدنى بأن اجد لديه النسخة الالمانية فى أول الاسبوع · وتسلمتها منه فى الموعد وارفقتها احدى صورى والقيت بها فى صندوق البريد وفى داخلى يصطرع احساس غامض مبهم · وجاءنى الرد · لقد انفصلت عن زوجها بعد ان احست منه ميلا الى احدى الفتيات ·

ويستيقظ فى داخلى ذلك الاحساس الغامض المبهم ويمضى يجتاجنى فى قسوة وعنف ·

قضيت بقية النهار افكر فيها وفى ما سينتهى اليه امرى معها ٠

ويحل الصيف وأعد نفسى للسفر الى بلاد الرين ٠ ذهبت الى العاصمة حيث اقمت بضعة ايام ومن هناك ابرقت الى يوتا اخبرها بيوم وساعة وصولى الى مطار فرانكفورت ٠ وذات يوم شديد القيظ من أيام شهر أوت ركبت احدى طائرات لفتنزا ٠٠٠٠ انها المرة الاولى التى اركب فيها الطائرة وأسافر الى بلاد الغرب ٠ اخذت مكانى بجانب النافذة دون ان يفارقنى ذلك الشعور بالتوتر الذى داهمنى منذ صعودى الى الطائرة ٠ انه الشعور الذى يسبق كل تجربة نخوضها للمرة الاولى ٠

وجاءت احدى المضيفات ووقفت تشرح لنا بالقول والحركة كيفية استعمال حزام الامان ٠ وطلبت منا الاقلاع عن التدخين ٠ ويعلو أزيز المحركات وتأخذ الطائرة فى التحرك على أرض المطار مضاعفة من سرعتها قليلا قليلا وترتفع فى الجو ٠ أشعر بضيق فى التنفس وبقوة هائلة تضغط على صدرى وخيل الى ان قلبى سيتوقف عن النبض وتمر لحظات ثم اعود الى حالتى الطبيعية ويزول عنى ما كنت اشعر به من توتر وانقباض واحل الحزام الذى يشد وسطى والقى برأسى على ظهر المقعد ويستغرقنى التفكير فى يوتا وفى بلادها العظيمة وشعبها المعجزة ٠ ملقيا بين الحين والحين نظرة من خلال زجاج النافذة على منظر الشمس والبحر والسحاب ، هذه الجبال الضخمة البيضاء السابحة فى الفضاء تحمل الخير والحياة لاهل الارض ، لماذا لا يكون الانسان نقيا معطاء كالسحاب ٠٠؟

كان المقعد المجاور لى خاليا فساعدنى ذلك على التأمل والاسترخاء دون ازعاج ، نام معظم الركاب ولم أنم ظللت اتطلع الى البحر والشمس والسحاب دون ان اشعر بالسأم والملل ٠ ومن حين لآخر كان الظلام يسود داخل الطائرة بسبب السحب الكثيفة التى كنا نخترقها كما كانت الطائرة تتمايل وتهتز أحيانا بفعل العواصف والرياح على ما يبدو ٠ وأنتبه من شرودى على صوت قائد الطائرة يدعونا لشد الاحزمة والى التوقف عن التدخين استعدادا للنزول بمطار مدينة فرنكفورت كما اخبرنا بان درجة الحرارة بالمدينة منخفضة ولا تتعدى السبع درجات ٠ يا الهى لقد تركتها بتونس تفوق الثلاثين ٠ وحمدت الله على اننى احتطت للأمر وحملت معى صدارا وسترة ثقيلة من الصوف ٠

ولاحت لنا اضواء المدينة ٠٠ ثم اضواء المطار ، وكلما ازددنا اقترابا من الارض ازدادت لمعانا ووضوحا يا له من مشهد رائع آلاف المصابيح تحف بالمهابط الممتدة هنا وهناك كأنها نجوم زرعت على الارض ٠

ويعلو صوت عجلات الطائرة وهى تحتك بالارض ٠ نهض الركاب وأخذوا فى جمع امتعتهم ٠ توقفت الطائرة عن السير ومرت دقائق قبل ان يأذنوا لنا بمغادرتها ٠ سرنا وسط مدرج مغلق يشبه النفق ذكرنى بتلك الممرات التى تستعمل لنقل اسود السيرك ٠ الى داخل حلبة العرض ٠ ولم نشعر الا ونحن داخل مبنى المطار يحيط بنا اعوان الامن والقمارق ٠ كل شىء تهتم مراقبته آليا بواسطة اجهزة الكترونية ، الاشخاص والجوازات والامتعة ٠

هل ستحضر يوتا لاستقبالى ٠؟ من يدرى فقد يحدث ما يمنعها من المجىء٠ وان هى لم تحضر هل اقضى ليلتى بفرنكفورت أم اذهب للبحث عنها بفيزبادن ٠٠؟ لعلها موجودة بمكان ما بمبنى المطار ٠٠

مضيت الى قاعة جانبية لاستلام حقيبتى ثم سرت متجها الى الخارج وبالردهة الرئيسية سمعتها تدعونى ٠ رقص قلبى طربا وتلاشى ما كنت اشعر به من قلق ٠ كنت على يقين من حضورها ٠ ادرت عينى هنا وهناك ابحث عنها بين الجموع المحتشدة فلمحتها واقفة تلوح لى بيدها والى جوارها وقف رجل فارع الطول ٠ عدت نحوى متهللة الاسارير باسمة الثغر ومدت الى يدها مرحبة هاتفة باسمى فى فرح طفولى ٠ وفى حركة لا شعورية انحنيت عليها اقبلها جريا على طريقتنا فى السلام على الاقارب والاحباب عند اجتماعنا بهم بعد طول غياب وبدت لى متحفظة كأنها تعانى من شىء ما ٠ أخذتنى منى يدى وسارت فى ناحية رفيقها وبعد أن قدمتنى اليه قدمته الى قائلة :

ـ الهير فرانس ، صديق ٠

صافحنى الرجل مرددا بضع كلمات لم أفقه منها شيئا بالطبع ثم سار يتقدمنا الى خارج المطار حيث كانت سيارته المرسيدس البيضاء بانتظارنا ٠ تناول منى الحقيبة ووضعها فى مؤخرة السيارة ودعانى الى الركوب باشارة من يده بعد ان فتح لى الباب الخلفى للسيارة ٠ ركبت وركبت يوتا الى جواره وتحركت بنا السيارة باتجاه فيزبادن ٠ كانت السماء ملبدة بالغيوم والمطر ينزل رذاذا أضواء الطرقات والمحال والسيارات تبدد الظلام وتحيل الليل إلى نهار ،

وأرادت يوتا فتح باب الحوار بيننا فمضت تسألنى عن تونس ، عن الطقس بها ، عن رحلتى ، كنت أشعر أنها تجاملنى ، وكنت من ناحيتى أحس بضيق شديد لا أعرف مأتاه • وحللنا بفيزبادن وقد توقف المطر عن النزول وخفت حدة البرد بعض الشىء •

بأحد شوارع المدينة توقفت بنا السيارة فقالت لى يوتا وهى تحاول رسم ابتسامة على وجهها المتجهم بعد حوار دار بينها وبين السيد فرانس :

ـ يوجد مطعم فرنسى غير بعيد من هنا ، احتفاء بك رأى الهير فرانس ان نتناول به طعام العشاء •

ما رأيك ••؟

قلت ـ وقد داخلنى شعور بالامتعاض ـ ارجو ان تبلغى شكرى للسيد هانس على دعوته لى للعشاء وان تقولى كذلك بأننى لست فرنسيا •

قالت وقد بدا عليها بعض الارتباك :

ـ معذرة يا صديقى ، اذ الهير هانس لا يقصد الاساءة اليك ، كن على يقين من ذلك ، وكل ما فى الامر اننا خشينا الا يعجبك الاكل الالمانى الذى لم تتعود عليه فتكون صدمة لك فى اول ليلة لك ببلادنا وانت تعلم مدى ما يتركه الانطباع الاول فى نفوسنا عن اى شخص او اى مكان نتعرف عليه للوهلة الاولى •

ـ أرجو الا يذهب بكما الظن الى اننا فى تونس نأكل على الطريقة الفرنسية لان فرنسا حكمت بلادنا فترة من الزمن ، ان معظم ابناء شعبى يرفضون كل ما هو فرنسى وغير عربى واعلمى يا صديقى بأننى شخصيا لا أعرف شيئا عن المطبخ الفرنسى •

قالت فى تلعثم :

ـ ان كان فى الامر ما يضايقك فبامكاننا الذهاب الى اى مطعم غيره •

ـ لا أبدا وانما أردت فقط توضيح وجهة نظرى فى مسألة معينة •

وسرنا باتجاه المطعم .. مطعم انيق فخم يوحى حسن تنظمه بعمق الحس الفرنسى الشاعرى الرقيق • كان رغم رحابته مزدحما بالرواد ، تنتشر فى ارجائه اضواء هادئة وتتردد بين جنباته موسيقى ناعمة رقيقة ، تزين جدرانا لوحات زيتية كبيرة تمثل بعض المعالم الشهيرة فى بلاد السين •

أكلنا سلطة وسمكا مقليا وخرشوفا محشيا · وشربنا ماء من منابع فيشى وحلينا بالفراولو ·

على نخبى شرب السيدفرانس ويوتا خمرة فرنسية بيضاء · كان كل ما فى المطعم فرنسيا : الاكل ، الاثاث ، الموسيقى الاغانى ، الامر الذى يجعلك تشعر كأنك تعيش فى قلب باريس ·

وعرفتنى يوتا برفيقها · قالت : انه صاحب صحيفة محليـة تصـدر فى فرنكفورت ·

لم يكن السيد فرانس يعرف الفرنسية فكانت يوتا تقوم بالترجمة وبينى وبينه · كنا قليلا ما نتكلم واذا تكلمنا فان كلامنا يأتى متقطعا · وكانت يوتا تبدو مغتمة تعانى صراعا داخليا حادا لم أستطع تبين مبعثه على وجه التحديد·

ومن حين لآخر كان يدور بينها وبين زميلها حوار قد يطول أو يقصر تبدو خلاله وعلى اثره منفعلة رغم محاولتها اخفاء مشاعرها عنى ، وكلما التقت عينى بعينيها ابتسمت لى ابتسامة مفتعلة فى محاولة مكشوفة لستر ما بها · كنت على يقين من وجود خلاف بينها وبين رفيقها وبسببى أنا بالـذات فينتـابنى شعور بالاستياء والثورة · يدفع السيد فرانس الحساب ونغادر المطعـم · سرنا تحت الاضواء المتلالئة فى صمت نستمع الى اصداء خطواتنا على الرصيف المبلل بمياه المطر ·

كان الطقس جميلا منعشا · وتقترب يوتا منى وتسألنى فى لطف :

ـ ما رأيك فى فنجان من القهوة ··؟

ـ لا بأس ·

ـ ثمة مقهى تركى على قيد خطوات من هنا مشهور باعداد القهوة الشرقية·

ـ رائع ·

ونحن نغادر المقهى قالت لى يوتا دون ان تلتفت الى وفى صوتها ارتعاشـة خفيفة بعد ان تبادلت بضع كلمات مع صديقها :

ـ اعتقد انه من الافضل ان نبحث لك عن غرفة بأحد النـزل ، يجب ان تستريح ··

ولم اعقب على قولها بشىء · كنت أتوقع أن أسمع منها مثل ذلك ·

ركبنا السيارة ، وساد السكون بيننا ، سكون خانق ثقيل كذلك الذى يسبق لحظة تنفيذ الحكم بالاعدام ٠

بحثنا فى هذا النزل وذاك من النزل الفخمة دون طائل وأخيرا عثرنا على بغيتنا ، غرفة فى الطابق الاول بنزل عائلى صغير لطيف يقع فى حى هادىء جميل ٠ وتنفست الصعداء وحمدت الله على اننا لم نجد غرفة خالية باحد تلك النزل الفخمة التى لا أشك بأن الاقامة بها ليلة واحدة قد تكلفنى ما يكفى لاقامتى أسبوعا كاملا بهذا النزل الظريف الصغير ٠

ودعت السيد فرانس ويوتا مكررا شكرى لهما على حسن استقبالهما وضيافتهما لى على ان نلتقى ثلاثتنا فى صباح الغد ٠

كنت متعبا ولم اجد الوقت الكافى للتفكير فى أى شىء وما ان استلقيت على الفراش حتى استغرقت فى النوم وفى الغد نهضت مبكرا صافى الذهن جم النشاط ، اخذت حماما باردا وغيرت ثيابى ونزلت ابحث عن مقهى قريب ٠ كان الطقس جميلا رائعا تشير طلائعه الى ان اليوم سوف يكون حارا على عكس نهار امس ٠ وبعطفة الشارع عثرت على مقهى يتوسط حديقة جميلة زرعت بمختلف انواع الزهور والرياحين ٠ انتقيت مكانا وجلست ٠ لم يكن يوجد بحديقة المقهى غيرى ولمحت فتاة شقراء فى جمال الربيع وغضارته تخرج من المقهى وتأتى ناحيتى فى خطوات سريعة كاحدى عرائس الاساطير القديمة ، شعرها طويل أصفر ناعم يترقرق على ظهرها كشلال من الذهب الابريز ٠

وقفت فى مواجهتى على ثغرها يطوف طيف ابتسامة ناعمة ، حيتنى بحركة خفيفة من رأسها وخاطبتنى بصوت رقيق كهمس نسيم الصبا ببضع كلمات رغم اننى لم افقه منها شيئا لكننى كنت على يقين بان الفتاة كانت تحيينى بها وتسألنى عن رغبتى ٠ قلت :

ـ كافى ...

مضت تعدو فى خفة ورشاقة ٠ وعادت بعد قليل تحمل طبقا وانحت على المنضدة تضع الاشياء امامى : آنية بها قهوة واخرى بها حليب ، وثالثة للسكر ، وملعقة ، ومنديل من الورق ومرمدة ٠ ولم يمر وقت طويل حتى

جاءت يوتا • حيتنى فى حرارة وجلست وسألتها كيف عرفت بوجودى بذلك المكان فقالت : انها كانت سائرة باتجاه النزل وحانت منها التفاتة ناحية المقهى فوقع نظرها على • وسألتها ان كانت ترغب فى تناول شىء ما فأجابت بانها تناولت افطارها منذ حين • وغادرنا المقهى وقريبا من النزل اشارت الى سيارة من نوع بيجو ذات الثلاثة خيول رابضة بمحاذاة الرصيف وقالت :

ـ انها سيارتى الجديدة •• صغيرة ومتواضعة كما ترى •

ـ بل جميلة ولطيفة •

وركبنا ، وقالت لى يوتا والسيارة تتهادى بنا على الطريق المنبسطة الناعمة:

ـ فى البداية سنقوم بجولة بالسيارة فى بعض نواحى المدينة • ان فازبادن مدينة هادئة جميلة معروفة بنبلها وعراقتها وبطابعها المميز •

وبدأنا جولتنا • بعد ان تعرفنا على اهم معالم المدينة تركنا السيارة باحدى المحطات ومضينا نواصل التجوال سيرا على الاقدام وقد اخذت الحرارة فى الارتفاع بشكل ملحوظ •

سرنا حوالى الساعة ، لم اشعر بالتعب • او الملل وفى الاثناء قامت يوتا بالتقاط بعض الصور التذكارية لى وقام أحدهم بالتقاط صور لنا معا • وشعرت بالعطش فتخيرنا مقهى يطل على حديقة ، طلبنا قهوة ومرطبات وجلسنا نتحدث وندخن • تحدثت الى يوتا من القلب من غير تحفظ أو احتراز معتذرة عما قد تكون سببته لى من ازعاج وخيبة أمل بدعوتها لى بالمجىء الى بلدها • لقد تغير كل شىء فجأة اثر كتابة رسالتها الاخيرة الى بعد ا نتعرفت على السيد فرانس ذات يوم بمنزل احدى صديقاتها ، وتكررت لقاءتهما بعد ذلك ، وعرض عليها الزواج ولم تتردد فى الموافقة لا عن حب او رغبة فى الزواج وانما هربا من مشاكلها ووحدتها • ومن المنتظر ان يتم زواجهما قريبا • ولم تخف عنى بان السيد فرانس يغارمنى وقد مانع فى اقامتى لديها ، وهى لا تتوقع ان يسعى للقائى من جديد ، وقد طلب منها ليلة امس ان تعد نفسها لمصاحبته الى بادن لقضاء بضعة ايام بها ولعله اراد من وراء ذلك الحيلولة بينها وبينى •

وقد حاولت ان تعتذر اليه وان تقنعه بارجاء تلك الرحلة الى وقت آخر لكنه رفض بشدة • وكاد الامر ينتهى بينهما الى القطيعة • ولكى لا تفقده لم تجد

أمامها غير النزول عند رغبته · لقد وقف الى جانبها فى محنتها بعد انفصالها عن زوجها وانتقطاعها عن العمل · ولم يبخل عليها بالمساعدة والعون ، وهو انسان لطيف مهذب جدير بكل احترام اضافة الى انه خطيبها وقريبا سيصبح زوجها · ونهضنا نواصل جولتنا ··· كل شىء فى المـدينة جميل ورائع : دروبها ، مساكنها ، مقاهيها ، دكاكينها ، مغـازاتها الضخمـة ذات الادوار المتعددة ، منتزهاتها · وكل شىء فيها نظيف وفى منتهى التنظيم ، وأهلها فى غاية اللطف والادب ·

ويحين موعد الغداء فأطلب من يوتا ان تأخذنا الى مطعم مناسب فتفعل · ونحن نغادر المحل تسألنى ان كنت ارغب فى العودة الى النزل لاصيب بعض الراحة وهى من ناحيتها مضطرة لتركى فترة من الوقت لانهاء بعض الاعمال الملحة ·

كانت الحرارة لا تحتمل ، وكنت اشعر برغبة فى الاسترخاء فابديت ترحيبى بالفكرة · والسيارة تطوى بنا الطريق باتجاه النزل سألتها عن السبب وراء مظاهر الزينة التى كان بعض العمال يقيمونها بأهم ساحات المدينة قالت :

ـ نسيت ان اخبرك بان المدينة تتهيأ للاحتفال بعيد الخمر بداية من هذا المساء وعلى امتداد اسبوع كامل ·

ـ عيد للخمر ··؟

ـ نعم · حيث تتنافس الشركات والمصانع المختصة بصناعة الخمور وبيعها فى الدعاية لمنتجاتها من «خمر المائدة» والتعريف بها ·

بلغنا النزل وكانت الساعة تقترب من الثانية · وعند الباب ودعتنى على ان تعود الى فى الخامسة · وجاءت فى الموعد ، واغتنمت فرصة وجودها معى بالغرفة فقمت بتسليمها مجموعة الهداية التى احضرتها لها معى فكانت فرحتها بها عظيمة ، فرحة طفلة بأشيائها ليلة العيد · وشكرتنى كثيرا حتى اخجلتنى واتفقنا على حمل تلك الاشياء الى شقتها بالـدور الثالث باحـدى العمـارات القديمة وبحى هادىء جميل تقيم وصديقتها ايفا المضيفة بشركة طيران ·

دخلنا الشقة فاستقبلتنا ايفا التى كانت جالسة تقـرأ احـدى المجـلات ، شقراء فاتنة ، رشيقة القوام ، مكتملة الانوثة ، قامت يوتا بالتعريف بيننا · رحبت بى بحرارة قائلة :

ـ لقد حدثتنى يوتا عنك كثيرا ..

ونظرت الى مليا ثم استطردت تقول :

ـ أتمنى ان اصبح سمراء مثلك فهل تقدر شمس بلادك ان تحقق لى هذا الامل ..؟

قلت :

ـ الى حد ما .. اما ان تتحولى الى سمراء فعلا فهذا غير ممكن على ما اعتقد.

ودعتنا الى الجلوس .

كان الجناح الذى تقيم به مؤثثا بأجمل الاثاث : حجرة نوم ، مطبخ ، حمام بهو فسيح اتخذت منه غرفة للجلوس ، والاكل ، ومكتبة فى نفس الوقت .

كانت ايفا غاية فى اللطف والرقة ، تتكلم الفرنسية بطلاقة ، وتمتلك مجموعة كبيرة من المصنفات لبعض مشاهير الكتاب الفرنسيين .

ولما ارادت يوتا اخذى الى جناحها الخاص اصرت ايفا على استبقائنا لديها بعض الوقت لتناول شىء من الشراب معها . وحاولت الاعتذار فلم تقبل اعتذارى . واستأذنت حيث غابت لحظات ثم عادت تحمل طبقا عليه فناجين القهوة وضعته امامنا على المائدة الصغيرة وقالت موجهة خطابها الى :

ـ لقد اعددت لك قهوة فرنسية ارجو ان تعجبك . قلت فى نفسى وقد اعترانى احساس بالتبرم : (فرنسية مرة اخرى؟) .

ورأيت يوتا تحدق فى فى رجاء وشبه اعتذار ، فابتسمت لها مطمئنا .

ومضت ايفا فشغلت جهاز الحاكى وجاءت بحلوى وعصير غلال . وعلى انغام موسيقى شوبان دار بيننا نقاش هادىء حول بلدى والامة العربية ، والشعب الالمانى ، والحرب .. وتحدثنا فى الادب ، ووجدتها لا تعرف شيئا عن الادب العربى ولم تقرأ فيه أى كتاب غير رباعيات الخيام . وتستأذنها يوتا فى ان تسمح لنا بالقيام . وامضى مع يوتا الى جناحها الخاص الذى بدا لى فقيرا متواضعا . واتجهت بى مباشرة الى غرفة نومها وضعت الاشياء التى تحملها معها على الفراش ثم اتجهت الى خزانة صغيرة فتحت احد ادراجها وتناولت منه صورة . صورتى ، وبعد ان كتبت عليها بضع كلمات قدمتها لى قائلة وقد ظهر عليها بعض التردد :

ـ آمل أن تحظى برضاك · لا أزعم اننى تفرغت لها كما يجب ·· الظروف والحالة النفسية التى أمر بها هذه الايام ابعدتنى عن الرسم وجعلتنى عاجزة عن عمل أى شىء مهم ·

تناولت منها الصورة متظاهرا بالشكر والابتسام، والحقيقة اننى شعرت بخيبة أمل كبرى، كنت انتظر ان اجد لديها لوحة كبيرة بالالوان· لا يهم · ودعنا ايفا وغادرنا الشقة ·· ومضت السيارة تقطع بنا دروب المدينة وقد ران علينا الصمت ، وكانت الشمس تؤذن بالمغيب بالساحات الكبرى انتصبت فرق موسيقية متعددة · انتشرت حولها حلقات الرقص تحت سماء تنيرها مئات المصابيح ذات الالوان المختلفة · وهنا وهناك اصبحت مقاهى ومطاعم صغيرة لبيع الخمر والمشروبات المختلفة ولتقديم بعض الوجبات الخفيفة احاطت بها مجموعة من المقاعد للراغبين فى الجلوس · كان عيدا حقيقيا · الابتهاج يشمل الجميع ، والفرح يطفح على الوجوه · أصداء الضحكات النابعة من الاعماق تمتزج بانغام الموسيقى الصاخبة ·

تركنا السيارة ومضينا ننتقل من ساحة الى اخرى ، وفجأة تبدى يوتا رغبتها فى العودة الى النزل فهى تريد ان تتحدث الى بعيدا عن الناس قبل ان تذهب للقاء السيد فرانس الذى يربطها معه موعد سابق ·

لم اندهش كثيرا لطلبها فقد هيأت نفسى لتقبل كل المفاجآت · وبعد ان احتوتنا الغرفة جلست تروى لى قصة حياتها من البداية ، مكررة اعتذارها الى عما قد تكون سببته لى من ازعاج وخيبة امل قائلة : انها اجرمت فى حقى لكنها رغم ذلك واثقة بانى سوف اغفر لها · وصارحتنى بحبها لى حبا عذريا مجردا من كل غاية ، وهى تريده ان يبقى حبا نقيا طاهرا حتى النهاية لانه اول حب حقيقى فى حياتها ·

لقد احبتنى اعظم ما يكون الحب، احبت فى المستحيل وهو ما يشقيها «آه ما اعظم الحب مع اليأس وانبله !!» وتجهش بالبكاء فى حرقة وعصبية ومضت تتكلم بالالمانية فى مرارة وبصوت مختلج متقطع وأنا انظر اليها فى صمت وقد امتلأ قلبى عطفا عليها · وبقيت على هذه الحال فترة من الوقت ثم هدأت سورتها ، وتنهدت فى عمق ورددت فى همس وقد أطرقت برأسها الى الارض كأنها تخاطب نفسها :

ـ لا فائدة · يجب ان ينتهى كل شىء بيننا ·

وخيم الصمت لحظة ثم رفعت رأسها ونظرت الى وقالت :

ـ هل تحبنى ··؟

ـ .....
أرجوك لا تقل شيئا ٠
وسكتت برهة ثم عادت تقول بصوت متهدج حزين :
ـ من الافضل لنا ان نفترق الآن ٠
ـ أعتقد ذلك ٠
ـ ولماذا ٠٠؟
ـ لا فائدة من لقائنا فلن يزيدنا ذلك الا عذابا ٠
واقتربت منى ووقفت فى مواجهتى ، ثم احتضنتنى بقوة مغمغمة من بين دموعها :
ـ أحبك ٠٠ أحبك ٠
ـ على ان اذهب الآن ٠٠ ارجوك ان تسامحنى ٠
وغادرت الغرفة ومضت تنزل درجات السلم بسرعة كأنما تفر من شبح يلاحقها وانا اتبعها دون شعور ٠
وامام النزل وقفت واستدارت نحوى ومدت الى يدها تصافحنى مرددة فى صوت متهدج :
ـ أرجو لك رحلة موفقة ٠
قلت لها فى توسل :
ـ سأنتظرك غدا ٠٠ يجب ان تأتى ٠
قالت والدموع تغسل وجهها :
ـ ربما ٠٠ وداعا ٠٠

والقت بنفسها داخل السيارة التى انطلقت بها بعيدا ووقفت أتبعها نظرى الى ان اختفت فى الزحام ٠ ولم انم تلك الليلة وانتظرتها فى الغد حتى الضحى لكنها لم تحضر ٠ وخطر ببالى ان اذهب للسؤال عنها فى شقتها لكنى أحجمت عن ذلك فى النهاية وقد امتلأت نفسى غما وكمدا ورأيت ان اغير المكان فذهبت الى فرنكفورت فقضيت بها أياما ثم الى فازبادن لاقيم بها أياما أخرى ٠

وذات صباح حملت امتعتى وغادرت المدينة الجميلة وفى نفسى شرخ وبحقيبتى صورة ٠ وركبت القطار متوجها الى باريس لاعيش هناك قصة جديدة ٠

محمد الخموسى الحناشى
ڤابس فى : 25 / 3 / 1984